
رواية
اليوم
السادس
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة
374
تأليف : أندريه شديد
ترجمة : حماده ابراهيم

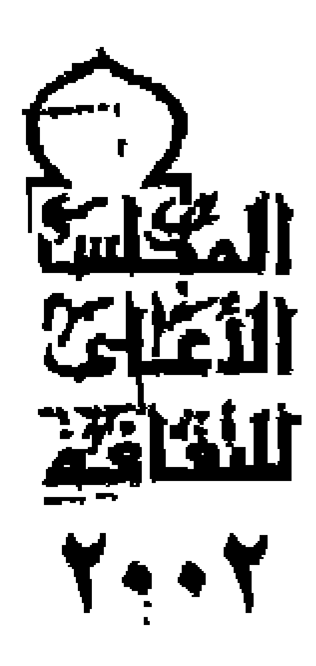
المشروع القومى للترجمة

اليوم السادس

(رواية)

تأليف : أندريه شديد

ترجمة : حمادة إبراهيم



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٧٤
- اليوم السادس - (رواية)
- أندريه شديد
- د. حماده إبراهيم

هذه ترجمة لرواية :

Le Sixième Jour

par

Andrée Chédid

الصادرة عن دار النشر :

FLAMMARION

1960

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

ولدت أندريه شديد في القاهرة من أبوين مصريين عام ١٩٢٠ والدها من أصل لبناني ، وأمها من أصل سوري ، تنقلت بين بلدان البحر المتوسط ودرست في سويسرا وبلجيكا وإنجلترا وفرنسا على وجه الخصوص .

درست في مصر ، وحصلت على دبلوم في فن الصحافة من الجامعة الأمريكية بمصر .

التحقت بالجامعة الفرنسية بلبنان .

نظمت الشعر بالفرنسية أثناء وجودها في لبنان ، ولكنه لم ينشر إلا في فرنسا

من مجموعاتها الشعرية :

كلمات من صورة	١٩٤٩
كلمات عن قصيدة	١٩٥٠
كلمات عن الكائن الحي	١٩٥٢
كلمات عن الأرض الحبيبة (مصر)	١٩٥٥
الأرض والشعر	١٩٥٦
الأرض المنظورة	١٩٥٧

الوجه وحده ١٩٦٢
البلد المزدوج ١٩٦٥
أصوات متعددة ١٩٧٤
أخوة الكلمة ١٩٧٥
شعيرة العنف ١٩٧٦
القلب والزمن ١٩٧٧
كهوف وشمس ١٩٧٩

من عناوين قصصها :

صحوة الغافى ١٩٥٣
جوناتان ١٩٥٥
اليوم السادس ١٩٦٠
ثم أعيد طبعها عام ١٩٧٢ ثم عام ١٩٨٥
الآخر ١٩٦٩
الباقى على قيد الحياة ١٩٦٩
ثم أعيد طبعها عام ١٩٨٥
المدينة الخصيبة ١٩٧٢
سلالم الرمال ١٩٨١
عدوّى ، شقيقى ١٩٨٢
الزوجة الغريبة ١٩٨٣
وراء الوجوه ١٩٨٤
منزل بلا جذور ١٩٨٥

من أشهر مسرحياتها :

بيرينيس المصرية	١٩٦٨
الأرقام	١٩٦٨
العارض	١٩٨١

تقيم حاليًا فى فرنسا وتكتب فى بعض الدوريات الفرنسية "اليوم السادس" التى ننشر ترجمتها فى هذا الكتاب .

تجرى أحداثها فى مصر أو "الأرض الحبيبة" كما تسميها "أندريه شديد" ، وتطلق التسمية على مجموعاتها الشعرية التى نشرتها عام ١٩٥٥ ، وهى رواية من الأدب الراقى لا تقل فى روعتها عن أشهر الروايات العالمية .

وهى رواية رمزية ، فالكوليرا فيها تمثل القضاء والقدر فى أبشع صورهما ، والطفل المريض "حسن" يمثل الإنسان بكل ما فيه من ضعف ، أما جدته "أم حسن" فهى تجسيد للحب ، والإيمان فى الحياة والأمل فى المستقبل .

إن "أندريه شديد" التي سبق أن عرفناها شاعرة عظيمة ، تعزف لنا فى هذه الصفحات لحنًا مؤثرًا يعتبر تشريفًا للأدب الفرنسى من كتابة عربية .

حمادة إبراهيم

شخصيات الرواية

Hassan	حســـــن
Saddika	صـــدّيقـــة
Saleh	صـــــالح
Moustapha	مــــصطفى
Nifissa	نفـــيســـة
Ali	عــــلــــى
Dessouki	دســــــوقى

إلى والدتى

تلك الرفيقة

"اســتــمع ... ســتظن أن هــذه أسطورة ، ولكنـهـا فى رأيى رواية منقولة ؛ فاستمع إلى ما سأتلوه عليك على أنه حقيقة" .

أفلاطون . جورجياس

الجزء الأول

الفصل الأول

كانت العربة وهى تهز حملها من الأنقاض تتأرجح على طول الطريق الزراعى . وكانت « أم حسن » جالسة إلى جوار السائق الذى همهم قائلا :

– سأتركك وأنصرف فى الحال .

– كما تشاء .

كانت "أم حسن " وهى تعلق عينيها بالأفق تنتظر أن تلوح لها قريتها مع الفجر فى لحظة واحدة . لقد حاول الرجل مرات عديدة أن يثنيها عن القيام بهذه الرحلة :

– أنت فى القاهرة آمنة مطمئنة ، فلماذا تذهبين هناك ؟ . . إن الكوليرا فى الأرياف قد صالت وجالت . . . وإن ما ستشاهدينه لن يكون مثار بهجة بالنسبة لك .

– يجب أن أذهب .

كانت فى الليلة السابقة قد شرحت أمر رحيلها لحفيدها "حسن" الذى تركته لأول مرة .

- إنهم أهلى يا صغيرى ، وأنا فى حاجة لرؤيتهم ، وكان من المفروض أن أقوم بهذه الرحلة منذ فترة طويلة ، ولكنها كانت مستحيلة قبل الآن ، فقد كان رجال الشرطة فى كل مكان ، أما الآن فمن الممكن أن أمر بحرية ، سأتغيب يومًا فقط . يجب أن أذهب ، هل تفهم ؟

وأومأ الطفل برأسه "بالإيجاب" . كان يفهم حقًا ، فقد كان يكفى لذلك أن تحدثه بطريقة معينة ، وأن يشعر بأن من يتحدث إليه فى حاجة لأن يكون مفهومًا ، وتنهدت وهى تفكر فى الطفل :

" يا ابن ابنتى المتوفاة ، يا ابن روحى" .

وسألها الرجل :

- كم عامًا مضت لم تعودى خلالها إلى "بروات" ؟

- سبعة أعوام ،وليس هذا بالشىء الكثير . إن هذه السنوات الثلاث الأخيرة هى المهمة .

كان الليل يتبدد ، وتعرفت المرأة قريتها عند نهاية المنعطف .

- سأفر هاربًا .

قالها الرجل بمجرد أن وطئت قدمها الأرض .

كانت "أم حسن" وهى تولى وجهها شطر "بروات" تسمع ضوضاء العجلات خلفها وهى تنمحى وتزول .

وكانت المنازل تحت وطأة أعواد القصب والأغصان لا تكاد تبرز من الأرض .

وتقدمت بضع خطوات ، مقتربة من الأبواب المفتوحة . وكانت المنازل معتمة كئيبة خالية من السكان ، مليئة بأشياء كثيرة متكدسة . وخشية ألا يأتيها أى صوت بالجواب لم تجرؤ "أم حسن" على النداء .

وفى الحال ، عادت العجوز فمثلت وسط الحارة ، كان ثمة عائق منيع يمنعها من التقدم ، فانهارت على الأرض ، وأخذت بين يديها قليلاً من ترابها ، ألصقت به خدها ودست فيه شفتيها .

وإذا بشخص يوجه إليها الحديث مستفسراً :

- ماذا جئت تصنعين عندنا ، يا أم حسن ؟

فانتصبت بكل قامتها ، وتوجهت بخطى وئيدة نحو ابن أختها القابع بالقرب من الحوض ، وعندما دنت منه ، وضعت يدها بارتياح فوق كتفه .

فاستطرد "صالح" قائلاً بلهجة تنم عن العناد :

- بوسعك أن تعودى من حيث أتيت ، لقد وصلت بعد فوات الأوان .

- بعد فوات الأوان ؟

- لم يعد هنا لاستقبالك سوى الأموات .

* * *

كان الفجر يصبغ القرية بلونه الرمادى ، وكانت سحابات من البعوض تتداخل فوق الحوض المغطى بطبقة أسفنجية تميل إلى الصفار ، وبعض الغربان تحلق على ارتفاع منخفض ، كأن المرء يسمع حفيف أجنحتها .

- لقد غادرتُ القاهرة فى المساء ، واستغرقت رحلتى طوال الليل

- إن الكوليرا لا تهم أهل المدن فى شىء ، إنها تهمنا نحن فقط .

- كنت أريد أن آتى منذ مدة طويلة .

- منذ سنوات ، وأنت لم تعودى هنا .

- شطرٌ من قلبى بقى معكم .

لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى "حسن" وهى تتطلع إلى ابن أختها ، كان "صالح" يلبس طاقية من اللباد الكستنائى فوق شعره الأملس ، لقد رأت وجنتيه البارزتين ، وخدّيه المتآكلين من الداخل ، أما أسفل سترته الزرقاء فكان متسخًا ، وكان الوحل يغطى ساقيه ، وكانت قدماه حافيتين ، أما حفيدها فهو دائمًا يرتدى جلبابًا نظيفًا ، وينتعل الحذاء ، وفى سن "صالح" سيصبح على قدر من التعليم وصاحب مهنة فى المدينة .

- أنت بعيدة جدًا ، ولا تعلمين عنا شيئًا .

- أنا لا أعلم شيئًا ، يا "صالح" ؟!

- لقد مات أحد عشر شخصًا من أسرتنا ، وأما عن القرية ، فلم أعد أدرى عدد موتاها ، ولكن أسوأ ما فى الأمر هو المستشفى . . . فقد كانت سيارة الإسعاف تصل ، ويدخل المرضون المنازل بالقوة ، فيخرجون أمتعتنا ويحرقونها ، ويحملون مرضانا ويذهبون .

- إلى أين ؟

- لا يخبروننا بذلك مطلقًا .

- لقد علمت أخيرًا أين حبسوا والدى وأخى : تحت الخيام ، وسط الصحراء ، لقد ذهبت إلى هناك ، ولقد طاردونا فى بادىء الأمر بالهراوات ، أمى وأنا ، ولكننا كنا نعود إليهم ونحن نصيح بأسماء ذوينا حتى يعلموا أننا لم نتخل عنهم ، وأننا هنا بالقرب منهم . . . ولقد انتهى بى الأمر إلى التسلل داخل إحدى هذه الخيام ، كان شيئًا مريعًا . . . وجه واحد يتكرر فى كل مكان : وجه أزرق ، هزيل ، يتدلى منه اللسان . . . إن المرضى ينام بعضهم بجوار البعض الآخر فوق الرمال ، يقيئون ، اثنان منهم كانا قد فارقا الحياة ، فتركوهما فى مكانهما . . . وناديت مرة أخرى ، فإذا بهم ينظرون إلىّ فى بلادة وبله . . . ودخل أحد الممرضين ينتعل حذاء ضخمًا ويرتدى قناعًا ، فدفعنى إلى الخارج . . . قبل أن أعثر على أهلى ، إن الذين لم

يعيـشوا كل هذا ، لا يعرفون شـيئًا . . . لن أنسى ذلك ما حـييت ، ومنذ ذلك الحين ونحن نخفى مرضانا ، بل وحتى أمواتنا . . .

- أنا أفهمك ، يا بنى .

- والآن انتـهى كل شىء ، إن عـربـة الإسـعـاف تأتى ، وتقـوم بجولتها ثم تعود بدون أحد ، لقد مرضت أمنا منذ عدة أيام . .

ثم أضاف "صالح" بصوت كدر :

- وماتت الليلة .

ثم تراجع ،وانصرف دون أن ينبس بكلمة .

فصاحت قائلة :

- سآتى معك .

- عودى من حيث أتيت .

- كلا ، هيا بنا معًا .

ولم يستمر فى عناده إلى النهاية .

فقال وهو يهز كتفيه :

- إذن ، تعالى ، ليس عليك إلا أن تتبعينى .

* * *

وانعطفا جهة اليسار ، واتخذا طريقًا فى لون الدخان ، وعلى الأرض الخالية التى تنقطها أشجار النخيل ، لم يلمحا طفلاً واحدًا يلعب .

كان الطريق يأخذ فى الضيق ، وكان المار يكاد أن يمس بكتفيه المنازل التى كان يواجه بعضها بعضًا ، وإذا بطفل صغير منتفخ البطن يجرى فى الاتجاه المضاد ، فيتعلق بثوب العجوز ، وما أن تخلص منها حتى دفعها بيديه الملطختين وفر هاربًا بأقصى سرعته .

- أين أهل هذه الديار جميعًا ؟

وانعطف "صالح" إلى اليسار ، دون أن يجيب ، وتعرفت "أم حسن" الحجر المسطح الذى تتخذه العجائز مقعدًا لهن . "لو كنا بقينا ، فها هنا كان سيأتى "سعيد" ليجلس . وتخيلته عند الغروب جالسًا بين الآخرين تاركًا حبات مسبحته تسرى بين سبابته وإبهامه ، وانعطف الطريق قرب بنية من الطوب النيىء ، بنية الخفير "عامر" ، الدار الوحيدة ذات الطابق الواحد فى سائر القرية ، وكانت واجهة الدار التى تقوم مقام الشرفة قد انهارت ، أما الجدار المحيط فكان قد تهاوى .

فقالت المرأة :

- كل شىء هنا ينهار .

- ما فائدة الشرفات للأموات ؟

وبعد مسافة ، التفت قائلاً :

- كنت قد خرجت لأحضر هذا ، مشيراً إلى المجراف الذى كان يمسكه بيده ، ولولا ذلك لما وجدتنى .

- كنت سأذهب إلى داركم .

- لم تعد لنا دار .

- هل غيرتم المسكن ؟

- لقد أحرقوا ديارنا ، بسبب العدوى ، إن رجال الإسعاف يجيئون ويشعلون النيران . . وأنت ، ألست بخائفة ؟

قالها وهو يقرب وجهه من وجهها . .

فقاطعته المرأة قائلة :

- هيا بنا ، علينا ألا نضيع وقتنا .

* * *

ومرة واحدة اصطبغت السماء بالنور . . ولم يبق أصبع من الظل على سطح القشرة الزرقاء "الشمس التى تخرج وردية تماماً من الجبل الوردى" لقد عاودها اللحن القديم ، هذه المرة ، كئيباً . . أكثر كآبة من أية مرثية .

وخرجت من إحدى الخرائب جاموسة هزيلة تجر مقودها وتمشى فى خطى وئيدة وهى تهز رأسها الضخم .

وسرعان ما خرج الاثنان إلى مفرق طرق صغير ، يقوم فيه مخزن الغلال ودكان حلاق الصحة ، ودكان البقال .

- "طاهر" أيضًا ، أخذوه . ولم يعد . إنهم لا يعودون أبدًا .

- لا تفكر فى هذه الأمور .

- كيف لا أفكر فيها ؟ . . . أما أمى ، فلن يأخذها هؤلاء ، سنقوم بدفنها هذه الليلة .

كان هناك ستار من القماش القطنى الأحمر يتدلى بين مصراعى دكان البقال فيصل إلى الأرض ، وبجوار جدار المخزن كانت تتكدس كومة من الأقراص - خليط من البعر والقش (الجلة) - تستخدم وقودًا فى فصل الشتاء ، وثمة آنية متراصة متجاورة ، تستعمل أوكارًا للحمام ، ولكنها أصبحت خالية من الحمام . . .

وقال "صالح" وهو يشير بعيدًا إلى كومة من التراب المتكدس :

- عائلات بأسرها كانت تعيش هنا .

فهمهمت العجوز وقد استولى عليها الجزع :

- اللهم احفظ الغلال حتى أعود .

فسألها "صالح" وكأنما حدس ما تفكر فيه :

- أين الغلام ؟

- لقد تركته عند معلم المدرسة .

- وعمى "سعيد" ؟

- لم يعد بوسعه أن يتحرك ، "يعـقوب" النجار يتولى أمره عندما أتغيب ، فقال "صالح" بصوت له صرير المبرد :

- ما جدوى تركهما ؟ هما اللذان يحتاجان إليك ، وليس نحن .

- يجب أن تغفر لى إذا كنت لا أستطيع شـيئًا ، فلقد تألمت لأننى لم أشارككم مصائبكم .

- ومن الذى يشارك الآخرين مصائبهم ؟

* * *

وعرج الطريق خارج القرية حتى ضفة القناة الضيقة ، وبالقرب من أثلة تكل تحت حمل أوراقها ، أشار "صالح" للعـجوز إلى مجموعة من الأكواخ بنيت من سيقان الذرة :

- هناك .

ودار معًـا حول مـحراث مـقلوب كان يسـد الطريق ، وإذا بطفلة تحمى رأسـها تحت جوال من الجـوت تهرول للقائهـما ، كان وجهـها رماديًا ، وتحت ثوبها الرث ، تبدو ساقاها تغطيهما القشور .

فبادرت "صالح" قائلة :

- أسرع ، أسرع ، قبل أن يأتوا ليأخذوها منا .

فقال "صالح" للعجوز :

- إنها "نفيسة" إحدى بنات أختك .

وسألت الطفلة "صالحًا" قائلة :

- هل وجدت المجراف ؟

فأراها إياه ، ثم أخذا يجريان ، ووجدت "أم حسن" مشفقة فى اللحاق بهما ، وأمام الباب ، أمر "صالح" الطفلة بأن تقف للمراقبة :

- هذا هو يوم جولتهم ، إذا سمعتهم ، أو رأيتهم ، دقى ثلاث دقات . . .

- عارفة .

وبينما كانت "صديقة" تجتاز العتبة ، إذا برائحة ماء مملح تملأ منخريها ، وشرح "صالح" للشباب الثلاثة المجتمعين وسط الحجرة من تكون تلك المرأة التى دخلت ، فالتفتوا وأومأوا برؤوسهم فى حركة سريعة ، وتعرفت العجوز "مصطفى" بسبب عينه العوراء و"عمرا" أصغرهم سنًا ، ولكنها لم تعرف الثالث ، ربما كان "رشادا" ، ولكنهم كانوا قد أولوها ظهورهم وراحوا يتهامسون ، وكانت هناك امرأة شابة هزيلة الخدين مجدورتهما ، مصقولة

الحاجبين ، تهوىّ على وجهها بطرف من وشاحها وجعلت - وذقنها على صدرها - تتفحص العجوز بارتياب .

لم يكن فى تلك الحجرة أى شىء ، اللهم إلا جرة من تلك الجرار التى تستخدم فى حفظ الغذاء كانت مسنودة بشقفة فى أحد الأركان ، ومن السقف كانت تتدلى حزمة من البصل الأحمر الكبير .

وتقدمت المرأة فى بطء باحثة عن جثة أختها ، وابتعد أبناء أختها جميعًا مرة واحدة فإذا بها فجأة وجهًا لوجه أمام الميتة ، وكاد طرف حذائها أن يمس باطن القدمين العاريتين .

كانت "سلمى" - وهى ملفوفة فى ثيابها السوداء وراقدة فوق الأرض ، تبدو طويلة بطريقة خارقة ، وكان وجهها الضيق المدبوغ يذكر "صديقه" بتلك المومياء التى لمحتها خلف واجهة زجاجية معفرة عند زيارتها للمتحف بصحبة "حسن" والمعلم الشاب ، لم يكن هناك أى وجه للشبه بين هذا القناع وبين وجه شقيقتها الصغرى المتفتح المنبسط ، إن الناظر إليها ليظن أن هناك خيوطًا خشنة جافة تتلاحم تحت الجلد لتبقى على أجزاء الوجه فى مكانها .

وفى مدى لحظة ، استحضرت أم حسن صورة سلمى كما كانت فى ماضى عهدها : مولّدة القرية ، ويداها على ردفيها الضخمين ، وهى تضحك بأعلى صوتها ، وتأملت من جديد الشكل المتمدد أمامها ، كانت الصورتان تتقابلان بطريقة تذهب بالعقل ، فأغمضت العجوز عينيها .

- أجلسى يا خالتى .

ووجدت نفسها جالسة ، بصحبة المرأة الشابة ، وكان وجه هذه الأخيرة قريبًا جدًا من وجهها ، لدرجة أن "صديقة" استطاعت أن تميز حلقة الخيط فى ثقب أنفها ، ذلك الخيط الذى يستبدل به يوما حلقة من الذهب ، وقال صالح :

- لقد تلقت آخر خطاباتك لها ، كنت تقولين إنك تعملين غسالة ، وتكسبين قوتك فى يسر ، ولديك عملاء كثيرون ، وأن عليها أن تأتى لتضم شملها إلى شملك .

ولكنها لم تكن لتتركنا مطلقًا .

وأطلق ضحكة عالية ذكرتهم بضحكة الميتة .

كان الرجال فى تلك اللحظة مشغولين حول الجثة ، بينما كانت العجوز تحصى على أصابعها الباردة عدد الغائبين ، وقام "عمر" بقطع الخيط الأحمر الذى يحيط برقبة أمه ليخرج منه مفتاح خزانة الزواج ، وكانت ألوانها الصارخة تبدو إهانة أو سبة فى مثل ذلك اليوم ، وتحتم عليهم بعد ذلك أن يستعملوا المجراف لتحطيم قفل آخر وراحوا معا يخرجون محتويات الخزانة ، وافترشت الأرض أشياء مختلفة متباينة ، قدر وخرق ، وأعشاب جافة ، وفلفل ، وعلبة كحل ، وإبر ، وخمس أساور من الذهب وعدد من البيض .

وفجأة سمعت ثلاث دقات ، ودخلت نفيسة مهرولة وهى تقضم أظافرها وتجذب بيدها الأخرى طرف ضفيرتها الشقراء .

فقال صالح :

- يجب أن نسرع .

وإذا بأربعتهم يحملون الميتة إلى الخزانة ، ثم يحاولون تكويمها بالداخل ، كانت الجثة صلبة كالحجر ، ومسرفة فى الطول إلى حد كبير ، ولقد كرروا محاولتهم عدة مرات قبل أن يضعوها على الأرض من جديد .

فهمهمت الطفلة قائلة :

- أسرعوا ، إنهم يزورون المنازل .

فاقترح أحدهم قائلاً :

- فلننشر ساقيها .

فأطلقت "أم حسن" صرخة وأخفت وجهها بين يديها فعاد الصوت يقول :

- فيم تفيدها الساقان مستقبلاً ؟

وإذا "بصالح" وقد توهج وجهه ، يضرب أخاه بكل قوته بقبضة يده ، فيمس هذا الأخير الجدار المقابل .

كانت الشمس التى تنسل من خلال الأغصان تضاعف من حرارة الجو ، ومرة أخرى حمل الرجال الجثة ، ولكنهم مهما حاولوا وضعها ، ورفعها ، وخفضها - وهم فى كل مرة يصدمونها بالجدران الداخلية للخزانة - لم يجد ذلك فتيلاً .

كانت الطفلة فى تلك الأثناء تدبدب بقدميها أمام الباب المنفرج ، وبعد لحظة ، سمعت ضوضاء محرك يشرع فى السير .

فهمس صالح قائلاً :

يجب أن نخفيها حتى المساء ، هيا بنا سريعًا إلى الحقول .

وتقدمت العجوز ، تتبعها المرأة الشابة ، تقترب منهم لكى تقدم لهم يد المساعدة .

* * *

كان الستة يحملون الجثة ، فمروا بالقرب من بئر ذات رقاص كانت ثقالتها الطينية مختلطة بالعشب ، وعلى الشاطىء الآخر لمجرى المياه ، بعد أشجار السمر مباشرة ، كانت القرية تمتد منبسطة أشبه براحة اليد .

لم يكن حولهم أى إنسان ، ولا فلاح واحد ، ولا أثر لطفل يرقد فوق جاموسة ، ولا جاموسة تدور حول الساقية .

ولم تستطع العجوز التى كانت تسند رأس الميتة أن تصرف نظرها عن ذلك الوجه الجامد .

وقال صالح :

- الليلة ،عندما يهدأ كل شىء ، سنقوم بدفنها .

كانت الطفلة ، بالقرب من الكوخ ، تشير لهم بالإسراع ، فعبروا الجسر ونزلوا إلى المشاتل المقسمة ، وساروا فى طريق المنحدرات وغاصوا حتى كعوبهم فى الطين ، وأخيراً عندما وصلوا قرب دغل ضخم من أوراق البردى ، مالوا لكى يرقدوا "سلمى" فوق الأرض ، فحطت الجثة وغاصت فى الطمى حتى نصفها .

ونزعت أم حسن عقدها من اللؤلؤ الأصفر ، وطوقت به الرسغ الأزرق البارد ، ثم انصرف كل منهم متخذا طريقًا مختلفًا .

* * *

الفصل الثانى

عند أحد أبواب المدينة ، نزلت أم حسن من العربة الرمادية ، كان يجب عليها قبل أن تلقى "حسنا" أن تغير من تعبيرات وجهها ، وأن تتخلص من تلك الصور السفلية (الخاصة بالمقابر) ، فتنفست نفسًا عميقًا ، واجتازت الأرض الخالية ، وواصلت تقدمها فى اتجاه الحىّ الذى تسكن فيه ، كانت المنازل متشابكة متداخلة لا يشرف عليها سوى المئذنة ونخلتين تداعبهما الرياح .

وانخرطت فى أول حارة صادفتها ، وفى ذهنها أن تلقى حفيدها بأسرع ما يمكن .

وبعد أن قطعت مسافة من الطريق ، تسلقت تلاً من الأنقاض المبللة كان الذباب يطن حوله ، ورفعت ثوبها وهى تمر بجوار المستنقع المائل إلى الخضار ، كان الأطفال يلقون فيه بالحصى والحجارة ، وإذا "بطاهر" ، المغرب[1] يلتفت ويحدقها بعينيه الورديتين ، كان سمينًا ، وكان يترنح فى مشيته .

(١) أبيض الشعر أحمر العينين .

ومن كل مكان بـرز أطفال لهم عيون أبنوسية اللون ، كان "عبد الله" يدفع دراجة ، وكان "سامى" و "أمين" يتنازعان إناءً فارغًا من التنك ، وثمة بنات صغيرات فى ثياب قطنية مزركشة ، ومناديل معقودة فى أركانها الأربعة فوق شعورهن المجعدة ، يقمن بعمل عرائس من الخرق والدوبار .

وقال "ياسين" متباكيًا وهو ينتزع منهن قطعة من القماش :

- ألبسننى ملابسى .

كان يمتعض ، مظهرًا لهن ظهره العارى ، وكان قميصه الممزق لا يتعلق بجسده إلا من كميّه ، كان يقول "جلبابى رقيق مثل الكنافة" .

وانصرفوا جميعًا ، وهو يتقدمهم ، وهم يقهقهون بصوت مرتفع .

- أين كنت يا أم حسن ؟

سألتها حليمة وقد تعرفت بالكاد على العجوز من خلال عينيها المتفتحتين ، كانت ترتدى ثيابًا حمراء ، وتجلس متكورة ، تقضى الساعات فى مداعبة القط الذى كان تحتفظ به بين ركبتيها .

- كنت مسافرة .

- آه ! مسافرة . . .

ولما أرضتها الإجابة ، عادت إلى تدليل القط "بس ، بس ، بس ، بس ، يا حلوتى يا سمرتى . ." .

وعلى مسافة ، كـان على العجوز أن تفض تجمعًا ، كـان الصغير "برسوم" وهو يرتدى منامة (بيجامـة) مخططة ، ويتسلق صندوقًا من الخشب ، يقلد آثار الكوليرا ، فكان يلصق مـثلثات من الورق الأخضر على جبـهته ، وأهدابه ووجنتيـه ، وكان فمه مـفتوحًا على سـعته ، ويداه على بطنه وعيناه مـقلوبتين تقريبًا ، وعلى حـالته تلك راح يقلد آلام المريض واحتضاره ، كان يصيح مهللاً .

- أنا مصاب بالكوليرا ! مصاب بالكوليرا ! . .

* * *

سـألها " علـى" البدوى ، وهو أمـام كـوخه المقـام من السـعف والخرق ، وخروفه لا يزال إلى جواره :

- من أين جئت ؟

- لا تعطلنى ، إننى لم أر حفيدى منذ يومين .

كـان وجـهـه المصطبغ بلون التـوابل ، ونظرته الثـاقـبـة ، وفكاه الضيقان ، ورسغاه الدقيقان ، كان هذا كله يميزه عن الآخرين .

فقال :

- لا تذهبى هكذا ، إننى أريد أن أودعك ، لأننى سأرحل غدًا .

- إلى أين ؟

- لم أستطع أن أتكيف مع هذه الحيـاة ، فحيثما كـثر الناس فسد الهواء .

إن المرء هنا يتنفس بمشقة ، إننى سأعود إلى صحرائى .

فأجابته بجفاف :

- لست أدرى .

فقبض على ذراعها .

- لحظة أخرى . . اسمعى : عندما خلق الله الأشياء أضاف إلى كل منها شيئًا آخر ، قال العقل إنى ذاهب إلى "سوريا" ، فقال له التمرد : سأذهب معك ، وقال البؤس : إنى ذاهب إلى الصحراء ، فقالت له الصحة : سأذهب معك ، وقال الثراء إنى ذاهب إلى مصر ، فقالت له الطاعة : سآتى فى صحبتك .

- أنا لا أفهمك ، أنا لا أستطيع أن أعيش بعيدًا عن هؤلاء .

وبحركة هائلة ، أشارت له إلى أولئك الذين كانوا يروحون ويجيئون بين الحارات : المرأة تحمل طفلها الراكب على كتفها ، الصباغ الذى تلطخت أصابعه باللون الأزرق اندمج فى المناقشة . وبائع البطاطس ، وبائع الخيار ، وقد راح كل منهما يدفع عربته محاولاً عبثًا أن يخترق طريقه ، بل لقد ألقت نظرة حانية على "زهيرة" بلسانها ، لسان العقرب ، وهى متكورة فوق حصيرها المستدير ترصد العابرين بعينيها ، عين النمس ، وأشارت إلى "أمينة" ، بائعة الطماطم الصغيرة ، تلك الضريرة التى كانت ناعسة بجوار دكان الحلاق :

- بدونهم لا أستطيع أن أعيش .

- إنك لا تفهمين ، أيتها المرأة !

- إنك تضيع وقتى ، يا "على" ، لقد سبق أن قلت لك إن الطفل ينتظرنى .

وتركته بغتة وبلا وداع ، وانسلت بين الجماهير ، خافضة رأسها حتى لا يتعرف عليها أحد ، ولكنها قبل أن تلج فى حارة "البقلاوة" بقليل ، التفتت وضميرها يؤنبها تحاول أن ترى البدوى .

ولكن عبثًا ، فرفعت ذراعها عموديًا ، وهزت يدها عالياً فوق الأمواج المتلاطمة من الرؤوس ، وقالت بأعلى عقيرتها :

- - السلام عليك ، يا على !

ولم تسمع الإجابة التى كانت تقول :

- وعليك السلام ، يا أم حسن .

* * *

كانت المدرسة مكونة من حجرة واحدة طويلة مطلية بالطَّفل ، ومع أنها كانت جديدة إلى حد كبير ، إلا أن جدرانها كانت متشققة ، وكان يفصلها عن المساكن الأخرى قطعة أرض كانت تُتخذ مكانًا يقام عليه السوق .

وذهبت أم حسن فجلست فوق إحدى الدرجات الثلاث ، ودفعت الباب خفيفاً ، وتطلعت إلى داخل الحجرة ، فأسرعت دقات قلبها

عندما لمحت فى الصف الأول - لم يكن يوجد سوى ثلاثين تلميذًا - قفا حسن الواضح جيدًا وأذنيه البارزتين .

وفوق المنصة الصغيرة ، كان المعلم الشاب ينتهى من الكتابة على السبورة ، كان يرتدى طاقية حمراء ، وبذلة على النمط الأوروبى ، وكان متدثرًا ، على الرغم من حرارة الجو ، فى معطف رث فى لون الزيتون - كان يخنقه ، وعندما التفت ، أومأت إليه "صديقة" برأسها إشارة إلى رضاها التام ، كان كل شيء فى هذا الشاب يوحى إليها بالثقة ، كانت تجد وجهه جميلاً وسيمًا ، ونظرته مشرقة ، أما ابتسامته ، فكانت تصفها بأنها "قطر الندى" ، ولكن عندما كان يحدث للأستاذ "سليم" أن يبدى رأيه فى الجهل والفقر والظلم ، كان وجهه يتغير فجأة وتتوهج أذناه ويتدفق الدم فى شرايين صدغيه ، وتتصارع كلماته ويختلط بعضها بالبعض فتصبح غامضة مبهمة ، وعندئذ تستولى عليه موجات من الشهامة والثورة لا يكاد يعى كنهها ولا يستطيع أن يدرك مغزاها أو أن يتحكم فيها .

ولكن بمجرد أن يشرع فى الدرس ، فإن صوته ، على النقيض من ذلك ، يصبح عذبًا فى صفاء البلور ، وتلمع كل كلمة من كلماته كحصاة صقلتها مياه البحر .

وقال وهو يصفق بيديه :

- انتهت الدراسة اليوم ، فانهضوا ، أيها الأولاد .

واختـفى حسن وراء الأطفـال ، ولم تستطـع أم حسن أن تلمـحه حتى عندما اشرأبت برقبتها .

- وختـامـاً ، سنكرر درس الصحـة . . . هل تحفظونه عـن ظهر قلب ؟

- نعم . . .

- إذن ، قولوا معًا . . . لماذا لك أنف ؟

فأجاب التلاميذ :

- لكى أتنفس .

كانت العـجوز تعـرف جميع الإجـابات ، فراحت تخلط صـوتها بأصواتهم .

- لكى أتنفس . . .

- ولماذا يجب أن تتنفس ؟

- لكى أعيش .

- وإذا سدوا لك أنفك ؟

- أموت .

- هل الهواء شىء جميل ؟

- نعم .

- هل لديك نوافذ فى داركم ؟

فصاحت غالبية التلاميذ :

- نعم .

- إذن، إذا كان الهواء شيئًا جميلاً ، وإذا كانت توجد نوافذ فى داركم ، فماذا يجب عليك أن تفعل ؟

- أن أفتحها .

فكررت أم حسن قائلة :

- أن أفتحها .

- عظيم ، أيها الأولاد ! . . . عظيم ، تستطيعون الانصراف .

فتواثبوا ناحية باب الخروج ، وتراجعت العجوز حتى أسفل درجات السلم لكى يتسنى لهم المرور .

كان "حسن" آخر من ظهر من الأطفال ، فارتمى بين ذراعيها .

* * *

كانت "صديقة" تحلم بأن تعود إلى حجرات الغسيل التى كانت تعمل فيها (الواقعة فوق أسطح بعض المنازل العالية) وأن تصطحب إليها "حسن" ، كما كانت تفعل فى الماضى ، كانت تجلس إلى

طست كبير من التنك ويداها غارقتان حتى مرفقيها فى الماء والصابون ، وعلى هذه الحال ، كانت تنظف الغسيل بينما الطفل يلهو من حولها وفى الأحياء الغنية كان الطفل يميل من فوق الحواجز ويراقب العالم أسفل منه ، وكان النيل يتلألأ ، وكانت المنازل الواسعة المبنية من الحجارة - والتى تزينها شرفات ذات أعمدة وسلالم من الرخام الأبيض - ترجع إلى زمن بعيد ، وكانت أعشاب الحدائق - بزهورها - تشبه بُسْط حفلٍ بهىّ .

وكانا فى المساء ، أشبه باثنين من الحجاج ، يغادران عالما ويذهبان إلى عالم آخر ، ويعودان ، ويد كل منهما فى يد صاحبه ، إلى طريق معفر بالتراب ، وديار بائدة ، ثم إلى عالم خال من الأزهار .

كان "سعيد" وحده يشكو فى بعض الأحيان ، وكان يتنهد قائلاً : فى الريف ، كل شىء يدعو للرثاء ، يوجد ظل لكل شجرة ، وكل شجرة هي دارك تقريبًا ، وكان كابوس واحد يسيطر على أفكاره : متمددًا ، ملتصقًا بالطريق الحجرى ، وشمس محرقة تخترق صدره .

ومنذ عودتها من "بروات" لم تعد "أم حسن" كما كانت ، فقد كان يلوح لها أن السماء لن تلبث أن تتصدع فجأة ، وعلى الرغم من بشرة حسن الفضية وعينيه السوداوين المتقدتين ، وجسده القوى ، وساقيه الشديدتين ، على الرغم من هذا كله فقد كانت رؤية حسن تغرقها فى قلق شديد .

* * *

وذات صباح ، وصلت « صديقة » أمام المدرسة . وفى نهاية الحجرة لم يكن قد تبقى سوى حسن الذى كان يتحدث إلى المعلم الشاب الذى تقدم نحوها يتبعه الطفل . وأثناء السير ، لاح أن الأستاذ « سليم » فقد اتزانه ، ثم أستأنف السير وهو يجر ساقيه ويستند إلى مكاتب التلاميذ .

فصرخت فيه أم حسن من عند العتبة :

- ماذا أصابك ؟

وتقدم عدة خطوات أخرى ، وبلغ الباب بمشقة ، بينما الطفل يسنده بذراعيه الصغيرتين وهو قلق على أستاذه . وإذا بالمعلم وقد انهارت قواه يضع يديه على بطنه ويستند إلى مصراع الحجرة .

- ماذا أصابك ؟

كان الميدان الصغير خاليا ، تزينه أشعة الظهيرة . وكانت شفتا الشاب تتلامسان ولكن صوتا واحدا لم يكن يخرج من بينهما . وعلى حين بغتة . . ، أخرج من جيبه منديلا رصاصيا كبيرا ، وأدار ظهره وجعل يتقيأ .

وأخيرا نطق قائلا :

- حسن ، أسرع بإحضار سيارة الإسعاف .

فقالت العجوز :

- سيارة الإسعاف ؟ لماذا ؟ . . .

– فليذهب بسرعة . . .

فألحت قائلة :

– ولكن ماذا بك ؟

– الكوليرا . أنا أعرف ذلك .

– أنت مخطىء . لم تعد هناك كوليرا .

– لا تناقشينى ، يا سيدتى ، إننى أعرف ما أقول . . .

كان يرمقها فى ضيق وملل ، ثم قال متوسلا :

– فليذهب الولد .

– هذا جنون . إنهم إذا أخذوك ، فلن نراك بعد ذلك أبدا . . . .

لقد تذكرت حكاية « صالح » : « لوكنت تعلم ماذا يجرى هناك » .

فأكد المعلم قائلا :

– إننى رجل مثقف .

ثم سقط رأسه إلى الأمام : « إن الرجل المثقف يذهب إلى المستشفى . . . إنه مثل . . » كانت ذراعاه تتدليان إلى جواره ، وكانت ساقاه ترتعشان ، ومع ذلك فقد كان يجاهد للاحتفاظ بهيئة جديرة بمركزه . وبما تبقى لديه من صوت ، جعل يلح قائلا :

– حسن ، إن أستاذك هو الذى يأمرك ، اذهب وأحضر عربة الإسعاف .

فرفع حسن عينه إلى جدته .

فقاطعت العجوز قائلة :

– لم تعد هناك عربات إسعاف . إنها لم تعد تأتى إلى هنا منذ أسابيع . فقد ماتت الكوليرا .

– إننى أعرف العلامات . لقد قرأت الكتب ، أيتها السيدة ، إنك لا تستطعين أن تفهمى . . . . فوافقته قائلة :

– ليكن . إنها الكوليرا . . . ولكننا سنقوم بعلاجك ، أنا والطفل . لن يعلم أحد بشىء . استند إلى كتفى وسأذهب بك إلى دارك .

– أنت مجنونة ، مجنونة ! . . .

كانت كل كلمة تتطلب مجهودا هائلا :

– هل تعلمين أنك بجهلك يمكن أن تكونى سببا فى مصائب كبرى ؟

هل هناك مصيبة أخرى فى هذه اللحظة سوى أن تتركه يذهب ؟

فقالت متوجعة :

– وحيدا ، وحيدا ، . . . ستصبح وحيدا .

فقال للطفل :

– أسرع إلى الشارع الرئيسى . وهناك اطلب من أول شرطى إحضار السيارة ، إنه يعرف ما ينبغى عمله . .

فنزل الطفل الدرجات الثلاث مسرعا ، واجتار الميدان ، ثم اختفى .

– حافظى على حفيدك جيدا وراقبيه فقد كنا معا خلال هذه الفترة الأخيرة فى أغلب الأحيان .

كان يحسن التعبير ، فلقد كان الألم يمنحه مهلة .

– قفى ، أيتها العجوز ، أرجوك ، على أعلى درجات السلم فى مواجهتى ، لكى تخفينى عن أنظار المارة . فمن الأوفق أن يعلم أهل الحى بالخبر عندما أصبح بعيدا . ففعلت ما طلب منها .

– منذ برهة ، كان هناك ما يشبه النيران فى أحشائى .

وأخرج من جيبه علبة سجائر ، وحاول أن يرفع إحداها إلى شفتيه ، لكنه سرعان ما أعرض عن ذلك . « بعد ستة أيام سأكون قد شفيت . لاتنسى ما أقوله لك : فى اليوم السادس ، إما أن نموت أو نبعث من جديد . . . اليوم السادس » . . . . أضافها وهو يتذكر عبارات الصحيفة اليومية .

« إنه بعث حقيقى » ثم قال وهو يرسم ابتسامة على شفتيه : » يجب ألا تجزعى إن الأيام الستة تمر بسرعة . وبعد ذلك أكون هنا من جديد . » وبيده أتى إشارة غامضة فى اتجاه نهاية الحجرة .

* * *

وانطلقت عربة الإسعاف، بيضاء متلألئة كألف سهم تحت الشمس . وكان حسن يتسلق على سلمها ، ثم توقفت وسط الميدان مثيرة الغبار .

ونزل منها ثلاثة رجال يرتدون المآزر . ودون أن يوجهوا أى سؤال ، دفعوا « أم حسن » جانبا ليحملوا المريض .

- إلى أين تذهبون به ؟

ولم يجبها أحد . ومرروا أذرعتهم تحت إبطى الشاب ، وجذبوه . فراحت العجوز تتعلق بكُمّ أحد الممرضين .

إنه قريبى . يجب أن أزوره .

- لا توجد زيارات . انصرفى ، ودعينا نقوم بعملنا .

- أريد أن أعرف . إنه وحيد . لا أستطيع أن أتركه وحيدا .

فقال الرجل وهو يتخلص منها .

- كفى : الأمر واحد بالنسبة للجميع . إنك تضيعين وقتنا .

كان الشاب يلهث تحت الشمس ، وقلبه يكاد أن ينفطر :

- دعيهم ينصرفون . سأعود فى اليوم السادس . أرجوك ، دعيهم ينصرفون . قالها متوسلا وهو يستسلم لأيدى الممرضين وقد ارتاح لأنه لم يعد عليه أن يبذل مجهودا .

وفى لحظات كانوا قد نقلوه إلى العربة ، وأرقدوه على نقالة . ولم تتحرك « صديقة » بعد ذلك. فقد تحجرت ساقاها وثقل لسانها .

وفى اللحظة التى انطلقت فيـها السيارة ، جرت مندفـعة إلى الأمام ، ويداها كالبوق أمام فمها ، وجعلت تصيح فى اتجاه القفص الأسود :

سوف تعود ! . . . . هذا أكـيد ، سـوف تعود . سنكون هناك ، أنا وحسن ، فى اليوم . . وقطع اصطكاك الباب جملتها . .

فأكملت بصوت خفيض :

- فى اليوم السادس . . .

***

وفى اليوم السـادس كان « حسـن » والعـجوز جالسين متـجاورين على آخـر درجـة من سلم المدرسة المـهجـورة . وظلا ينتظران حـتى منتصف الليل . فلم يأت أحد .

فقالت أم حسن :

- فلنعد .

وانصرفا فى خطى وئيدة متخـذين الطريق الذى كان ينيره القمر ، والتفتـا خـلفهما عـدة مـرات . وأمـام باب دارهمـا . التقـط الطفـل فى حركة غاضبة حجرا قذف به فانطلق إلى أبعد ما يمكن .

وصرّ مصراع الباب عند فتحه وإذا بصوت « سعيد » يئن شاكيا :

- آه ! أهكذا يترك عجوز مسكين بمفرده ؟ . . .

وصبر الطفل والمرأة ستـة أيـام أخرى . ولكن الانتظار مرة أخرى لم يجد شيئا . وعندئذ ، ودون أن يعترف كل منهـما لصاحبه أعرضا معا عن التعلق بالأمل .

الفصل الثالث

وتوالت الأيام ، أيام عصيبة .

وعلى أثر بعض الحالات الفردية ، تحدث الناس عن موجة جديدة للكوليرا . وعادت من جديد زيارات الأحياء الآهلة بالسكان بصفة دائمة ، وعادت صفارة سيارة الإسعاف لتصير من جديد داء مقيما .

وبسبب كل تلك الإجراءات لم تتمكن العجوز من استئناف عملها . أما الطفل ، فمنذ أن حرم من المدرسة راح يتسكع فى كل مكان بين أوقات الوجبات . وكانت أم حسن لاتراه أياما بأكملها ، فقد كان يتسلل كالقط بين الحارات .

وفى صباح اليوم ، كانت بعض الهالات السمراء تحيط بعينيه . ولكن ما إن استدارت « صديقة » لتهتم بأمر الكهل ، حتى فر حسن هاربا . وانقضت فترة الصباح فى انتظاره . وتذكرت العجوز أنه فى الليلة السابقة دفع العنزة « فيلو » ، التى كان يحب أن يتسلق عليها ، ثم إنه لم يأكل جيدا ، ولم يهنأ فى نومه،فقد كان يتقلب أثناء نومه . لقد فكرت فى ذلك طوال فترة الصباح . ولما لم يصل فى موعد عودته المعتاد ، شرعت تذرع الحجرة دون أن تنبس بكلمة .

كان « سعيـد » يتابعها بعينيـه وهو متمدد فوق الحصـير ، وساقاه المشلولتان ملفوفتان فى إحدى البالات ،وجذعه مختف تحت «الحاف » من القطن . وكـان الناظر لا يرى سـوى وجه الكهل ويديه ، وكـان وجهه مليئا بالتجاعيـد ، ومن جانبى الطاقية المصنوعة من اللباد كانت تتدلى أذناه .

كانت كل رياح الصـحراء قد غـارت داخل ثياب زوجتـه ! كانت تروح وتجيء تائهة فى أوشحتها .

- كفى ، كفى . . .

كان الرجـل صموتا ، ولم يكـن يحب الجلبة ولا الضـوضاء . . فأغمض عينيه حتى لا يعرف شيئا بعد ذلك .

ولكنه من خلال جـفنيه المغلقين . كان يشـعر بشبح زوجـته يروح ويجـيء ، ويجـتاز فى عناد المسافـة الضيـقة التى تفـصل الجدار عن الجدار .

والتفت برأسه خفيفا ناحية اليمين،محاولا أن يلمح باب الدخول . كان الباب مـصنوعا من بعض الألواح الخشبية سُـمِّرَت على عجل ، وكان مـوصدا مـنذ أن خرج الطفل ، وكـانت رؤية هذا الباب تغـرق الكهل فى حـزن عـمـيق . وفى الزاويـة المقـابلة ، أحـدق فى الفناء الصغير فلمح العنزة « فيلو » مـقيدة إلى عجلة إحدى العربات ، تلك العربة التى استخدمت فى نقل الأثاث . وكـانت « فيلو » وهى مقيدة فى حبلهـا تخرج لسانا يميل إلى الخضـار ويتدلى من فمهـا . وهمهم

سعيد قائلا : « أرر ، أرر . . » فى حنان ورقة لكى يلفت انتباه العنزة . وخلال لحظة ، تبادل الرجل والبهيمة نظرة ، ثم تنهد الرجل وولى رأسه من جديد .

وفجأة قطعت العجوز سيرها ، وثبتت أمام الباب ،ثم دفعت المصراع بكلتا يديها إلى الخارج وخرجت . فاخترقت الحجرة حزمة من النور . وراحت هى تبحث عن الولد وقد مالت إلى الأمام واشرأبت برقبتها . وتقدمت بضع خطوات وولجت فى أول حارة وتركتها ، ثم ولجت فى حارة أخرى . لكنها أعرضت عن تفتيشها جميعا ، مفضلة أن تقف أمام خرابتها وترصد فى عدة اتجاهات مرة واحدة. وفضلا عن ذلك ، فقد كانت تخشى أن تثير فضول الجيران . كان من يكتشف حالة من المواطنين يتلقى جائزة ، فربما خانها بعضهم حبا فى المال .

ولأول مرة فى حياتها ترتاب فى الناس ، لقد بدا لها أن كل شخص يمكن أن يكون واشيا . . كانت « زهيرة » ، الجدة وهى جالسة على خزانتها الخشبية ومعوجة كجذع الشجرة ، أكثر قبحا من الشيخوخة ، كانت ترصد بعينيها ، عين الفهد ، كل حركة من حركات أم حسن . ومر الصبّاغ ذو الأصابع الزرقاء أمام أم حسن ببطء محسوب أثار ثائرتها . وكانت « أمينة » تتظاهر بوزن الطماطم على ميزان أكبر منها حجما ، وهى فى الواقع تراقب كل شىء من بين جفنيها المغلقين تقريبا .

وعادت أم حسن إلى الحجرة وراحت تذرعها من جديد .

وتوسل إليها سعيد قائلا :

- كفى بالله عليك .

« رحمةً . . . » والتوت بقية جملته . كان لسانه فى أغلب الأحيان يروح فى دوامة من الألفاظ ولا يجتاز شفتيه شىء واضح . ولكن زوجه كانت تفهمه دائما . فيما عدا اليوم . إنها اليوم تبدو وكأنها أصيبت بوقر فى أذنيها .

ومع ذلك ، فبعد لحظات ، جاء صوت من بعيد فسمرها فى مكانها . لقد دوت صفارة الإسعاف من جديد ، وهى هذه المرة أكثر قربا ؛ فانتصبت المرأة واقفة فى إفريز الباب ، كتلة تسد الطريق أمام النهار ، وتغرق داخل الغرفة فى حمام من المداد . وانتاب سعيد إحساس بأنه يسقط فى قاع بئر . فضم يديه ليستجدى كلمة ، أو حركة ، أو أى شئ . ولكن « صديقة » كانت على بعد فراسخ من تلك الحجرة .

- ألا ترينه بعد ؟

همس بها وهو يبذل جهدا لكى يشارك زوجته فى جزعها . فلم تجب . فلم تكن تسمع سوى انطلاق السيارة ، والدماء تنبض بين صدغيها ، وكان قلبها يملأ فمها .

الظهر . شمس قاسية ثقيلة . وابتعدت سيارة الإسعاف . لقد تبين ذلك من ضوضاء العجلات .

- ألا ترينه بعد ؟

ومهد صوت سعيد لنفسه طريقا . فالتفتت أم حسن وأحدقت فى الرجل العجوز بعينيها الرماديتين . ما جدوى زيادة القلق ؟

- ليس فى الأمر شئ . لن يتأخر . استريحى .

كم بدا لها الرجل بائسا ! لم يعد فى ذلك الوجه سوى العظام ، وكانت أصابعه تذكرها بالعصى التى يتخذها من أشجار الصفصاف . . والتى ابيضت من حرارة الشمس وعادت بالذاكرة إلى الماضى ، هذا الرجل فى الماضى بصوته الآمر الناهى ، وهى دائما على بعد خطوات خلفه . « إذا كان أحدهما يجب أن يموت ، فأولى أن يكون الكهل » .

ولكى تكفّر عن هذه الفكرة المشئومة ، خارت على ركبتيها أسفل الحشية . ثم أخرجت من جيبها منديلا كبيرا أحمر ، وجعلت تجفف جبين زوجها . وبعد ذلك ، راحت تهوّى عليه ، وذلك بتحريك المنديل القرمزى المربع من الأمام إلى الخلف .

فعاد الرجل إلى عدم اكتراثه وغفا فى بطء وهدوء .

وفى هذه المرة توقفت عـربـة الإسعاف عـلى بعـد عـدة أمتار . ثم صوت الأقدام . وعلى الفور - لم تجد الوقت الكافى لكى تنهض - اجتاز عتبة الدار ممرضان وفتاة وأحاطوا بالرجل العجوز .

- هل طُعِّم ؟ ماذا يفـعـل وهـو راقد على الأرض ؟ هل تقـيأ ؟ هل يشعر بالبرد ؟ بالدوار ؟ بالإسهال ؟

كـان كل من الممـرضين يرتدى مئـزرا أبيض ، مـزرّرا من الخلف ويتدلى حـتى عقبـيه ، وعلى رأسه طاقيـة بيضاء . كـانا يميلان على الكهل يواصلان إرهاقـه ومضايقتـه بالأسئلة - كانت الفتـاة - وكانت هذه أول زيارة لها فى هذا الحى - تقوم بتفتـيش الحجرة وكانت رائحة الحجـرة النفاذة قد أسـاءتها بمجـرد دخولها فكانت تـسعل فى يدها ، ووجهها متجه ناحية الجدار .

ولـمـا اغتـاظت « صديقـة » بسبب كـثرة الأسئلة وسـرعة إلقـائها انتصبت قائمة وقالت :

- ألا ترون أنه مشلول ؟ إنه ليس مصـابا بالكوليرا . إنه مشلول ! مشلول . . هل تفهمون ؟

ووضع الممـرض الأول ركبـة على الأرض ، ونزع نظارته بطريقـة استعراضية ونفخ على زجاجها ، ومسحها بجانب من مئزره ، قبل أن يعيـد وضعها فـوق أنفه . وحتى بنظـارته ، كـان لا يحسن الرؤية . فقد كان وهو يفحص المريض كأنما يتشممه . وختم كشفه قائلا :

هذا الرجل ليس به شيء . لقد خدعونا .

وأيّد ذلك المرض الثانى بإيماءة من رأسه . وسجلت الفتاة فى دفترها الصغير هذه العبارة : « لا شيء يستحق » .

وقال المرض الأول :

- بوسعنا أن ننصرف .

كان الثانى يتبعه دائما . وكان يمشى كذكر البط ويشرئب بعنقه ليزيد من طول قامته . وعلى الرغم من كعوب حذائيهما ، فقد كانت الفتاة أطول الثلاثة ، وكان شعرها الملفوف فى الشبكة يضفى عليها طابع الحزم والشدة .

وبينما كان المرض الأول يجتاز العتبة ، ألقى هذا السؤال فجأة :

ألا يوجدُ سواكما هنا ؟

فكذبت المرأة وقالت :

- لايوجد سوانا .

كان الوباء يقترب من نهايته ، وقرر رئيس الممرضين أن يرسل هذه الحملة التفتيشية المزعومة . لقد أرشد أحد المازحين السخفاء عن هذه الحارة . ليكن . . إن الشمس فى هذا الوقت تدعو للراحة . كان المرض يشعر بالجوع والعطش . وكان يفكر متلذذا فى إغفاءته القريبة وفى شبه حلمه هذا ، كانت « قدرية » ابنة صاحب المقهى - بنهديها

اللذين يملآن صديريتها الوردية ، وكفيهـا البيضاوين الممتلئين - تقترب منه وهى تبـتسم . لن يلبث أن يطلبـها للزواج من أبيهـا . وسيـقول لمصطفى « أنا مـوظف » . وسيكون من دواعى الشـرف له أن يصبح صهرا له .

ولم تخرج الفتاة فى إثرهما . كانـت تتمنى أن تتحدث إلى السيدة العـجوز بلا رقـيب ، ولكن العـجوز لم تعطهـا الفـرصة . إنهـا لو جـرؤت ، لألقت « أم حسن » بهـا خارجا . فما الداعى لإلحـاحها هذا ، وعرضها يد المساعدة وإسرافها فى تقديم النصح والإرشاد .

- لايجب أن تأكلى الأطعـمة النيـئة . لكى تحـصنى نفسـك ضد الكوليرا يجب أن تنظفى نفسك . . وأن تغلى كل شىء ، وأن تأخذى حذرك من . . » .

كان صـوتها يطن كالدبور . واقـتربت من الرف الوحيـد وأشارت إلى موقد البترول وقالت :

- يجب أن تستخدميه .

ثم فحصت الوعاء النحاسى وقالت موافقة :

- إنه نظيف .

فردت العجوز قائلة :

- إننى غسالة .

وأشارت بعد ذلك إلى الجرة الضخمة وقالت :

- من أين تحضرين المــاء ؟

- من المضخة .

- حسن ، ولكننى أكرر لك قولى بأن تقومى بغليه .

- طيب ، طيب .. طيب .. طيب .

كانت صديقة ستبخـرها بكلمة « طيب » وتتوجها بكلمة « طيب » فقط لو أن الأخرى وافقت على الانصراف .

كانت الفتاة تتمتم قائلة :

- إننى أحب أن أقـدم لك يد المساعدة . الآن ، أو فـيمـا بعد ، عندما تشائين . وعلى الرغم من شفـتيها المخضبتين خفـيفا ، وخديها الشاحبين ، وتـسريحة شعـرها ، ومـلابسـها القاتمة فقد كـانت تنتمى إلى عالم آخر .

قطعة مرآة مثبتة على الجدار التقطت ، لمدى لحظة ، صورتهما معا وكان تأثير ذلك على العجوز أشبه بالصدمة ، وعلى الفور خطرت لها جملة « صالح » : « أنت لم تكونى منا أبدا » .

وألحت الفتاة قائلة :

- أنا اسمى « دانا » . . . « دانا » . . سوف أعود .

ونزعت من مفكرتها ورقة ، وكتبت عنوانها :

- إذا احتجت إلى يوما ما ، فهذا هو العنوان الذى تجديننى فيه .

- أشكرك .

همهمت بهـا المرأة وهى تدس الورقة فى صديريتها وتتوجـه ناحية الباب الذى دفعت مصراعه .

إلا أن الفتاة لم تتحرك . كانت نظرتها تجول فى الحجرة فى بطء ، مـتعلقـة بالسـقف المنخـفض ، والجدران الـسوداء ، والحـصيـر على الأرض ، والحبل المشـدود بين مسمـارين والذى كان يتخـذ صوانا . كانت تهز رأسهـا فى حزن وهى لا تقوى على الانصراف ، وتوهمت العجوز أنها سمعتها تقول : « لا مؤاخذة . . . » .

فقالت « صديقة » وقد بلغ بها الصبر نهايته :

- وداعا .

وفى النهـاية ، سارت الأخرى ناحـية باب الخـروج ، ولكن على مضض ، وهى تتلكأ مرة أخرى أمام الباب .

وأخيرا قالت :

- إلى اللقاء .

***

وما إن سمـعت « صديقة » المحرك وهو يسيـر ، حتى جثت على ركبتيها وقبلت الأرض عدة مرات قبل أن تعود إلى مكمنها .

لم يكن بالخارج أحـد سواها . وكـانت تلك اللحظة هى اللحظة التى تتخلص فيها الشمس مـن قيدها ، ويأوى فيها الناس إلى ديارهم ولم يطل انتظارها .

فقد لاح لها فى نهاية الحارة شبح هزيل ، ليس محدد الملامح .

وترددت المرأة . إن الثـوب الأزرق الذى تعرفتـه لم يكن يهـفهف حول الساقين الوثابتين . كان الثـوب الأزرق يلتصق بالجسم ، ويعوق الخطوات . وترنح الطفل . وانثنى ويداه تضغطان على بطنه .

- « حسن » !

وسرعان ما اندفعت تجرى فى اتجاهه وهى ترفع ثيابها .

واندفع الطفل بين ذراعيـها وهو يتوجع . فضمـته فى بادىء الأمر إلى صدرها دون أن تسأله . ثم نهـضت وحاولت أن تعود به بأسـرع ما يمكن . لكنه كان يجاهد حـتى لا تحمله . ووضعت يدها على فم الطفل لكى تكتم أنينه . وبيدها الأخرى أحاطت به وسحبته إلى بابها المنفرج . كان عقبا « حـسن » يحكان أرض الطريق ويثيران سحبا من الغبار .

وما أن اجتازا عتبـة الدار حتى دفعت « صديقة » المصراع فى عنف ودفعت المتراس حتى نهايته .

الفصل الرابع

فيما عدا ذلك البرغى الذى سقط قبل أسابيع وغار فى مكان ما من الأرض ، فقد كـان المتراس سليما . كان اللـسان الضخم وهو داخل لنهـايته فى « الرزة » يضـفى على الباب ، مع أنه كـان هشا ، سـمة القوة والشـدة . وأطلقت المرأة تنهيـدة تنم عن الارتياح ، فقـد كانت وهى وراء هذا اللوح المرتج بالحديد ، تشعر أنها فى مأمن ، وفى حما مكين من الجيران ، ومن الشمس ، ومن الطريق .

كانت لاتزال تسحب حسن ، فجرته حـتى نهاية الحجرة ، أبعد ما يكون عن الكهل .

ووضعت الطفل أمـام الكوة الصغيـرة وجلست القرفصاء أمـامه ، لاهثة ، لا تكاد تجـرؤ على النظر إليه . ثم راحت بكلتـا يديها تربت على سـائر جسـده . ومن خلال القـماش الأزرق كـان القلب ينبض كعـادته ، وكان البطن يحتـفظ بشكله مـع ذلـك الانتـفـاح الطفيف إلى أسـفل . ورفعت الثـوب . كـانت البشـرة فـاترة وعلى الردفين حـبيـبات لا تكاد ترى ، وكـان الفخـذان الأملسان على حـالهمـا ، وكذلك الركبتان الخشنتان . كانت أصابعهـا تطمئنها شيئا فشيئا ، فلم تعد ترتعد .

وحولت وجهها ناحية الأشعة المحرقة التى كانت تخترق الزجاج لتمهل نفسها لحظات . ثم راحت من جديد ترفع الذراعين . وفى هذه المرة ، تناولت الطفل من كتفيه . وظلت تمسكه على هذا النحو مدة طويلة ، كأن راحتيها تستطيعان أن تنقلا إلى حسن نوعا من القوة ، أو ضربا من الهدوء .

كان الكهل لا يزال مطروحا على ظهره وهو يلهث ، وكان يخيل إليه أنه يشعر بحجر فوق صدره لا يفتأ يكبر ويتضخم . وفى العادة كان كل شىء يخف ويهدأ بمجرد أن يعود الطفل ، وكانت كلماته تبعث الحياة . وكان « سعيد » يعلم أن « حسن » قد عاد . ولكن الألم والظلمة في ذلك اليوم كانا شديدين . فانتابه شعور كئيب لم يستطع معه أن يمسك نفسه عن إطلاق صرخة مبحوحة .

فتوسلت إليه المرأة قائلة :

- كفى . أنا لا أستطيع أن أهتم بك الآن .

وبعد هذه الصرخة شعر الكهل بارتياح . وألقى بالمرأة وبالطفل خارج عالمه وانزوى وضاع - مرة أخرى - داخل جسده .

وارتعشت « صديقة » وقد أزعجتها صرخة الرجل ، فتركت يداها كتفى « حسن » . كيف لم تلاحظ أن حدقتى الطفل كانتا ثابتتين ؟ وأن بياض عينيه قد فقد كل صفائه ؟ والأذنان ؟ أذنا حسن الكبيرتان البارزتان المتنبهتان دائما لكل ما يجرى بعيدا كانتا قصيرتين ، منبسطتين ، وكانت بشرتهما شاحبة تماما . وكان الفم بلا شفتين تقريبا . أما الغمزتان فكانتا مختفيتين .

ودارت العجـوز على عقـبيهـا ، وابتعدت لكى تتـأمل الطفل من قدمـيه حتى رأسـه . كان - ونصفـه العلوى معـوج - يذكرها بذلك الغسـيل الذى لا يزال رمـاديا ، والذى كانت تقـوم بعصـره بعد أول غسلة . « حسن » ، الذى كان يقفز فى أنحاء الحى كله وكأنه مربوط إلى السماء بخيط خفى ، ها هو الآن مقيد فى مكانه !

- هل أنت تعبان ، ياولدى ؟

وسرعان ما أسفت على سؤالها .

- هيا ، ليس فى الأمر شىء . سـيمضى هذا . . لن يكون هناك شىء .

وإجابة عـلى كل سؤال كان « حـسن » يتقـدم بضع خطوات إلى الأمام ، ثم ألقى بنفسه وبكل ثقله فى حضن جدته . لقد ألقى بحمله عليها . فلم يعد يستطيع أن يتـحمل بل ولا حتى أن يشارك فى حمل ثقل حياته نفسها . وعلى حين فـجأة أصبح هذا الجسد يزن ما يساوى ألف طفل معـا . وبيدها الفارغـة ، خلّصت المرأة الطفل من طاقيـته القطنية ، وتحـسست رأسـه . كان شعـر « حسن » قد نبت أكـثر من اللازم : « سأصـحبه إلى الحلاق ، وإلا فـسيملؤه القـمل » وداعبت الخصلة الكثيـفة النابتة فى مقدمة رأسه ، وسـرحت فى تصور كل ما يجعل الطفل شبيها « بحسن » فى الأيام الخالية .

ولكنه دفعهـا على حين فجأة ، وقفز قـفزة إلى الوراء . وجعل ، ويداه ملتـصقتـان ببطنه ، يمتـعض بصورة بشـعة . وبعـد ذلك رفع

ملابسه ، كاشفا عن ساقيه ، وفخذيه وأسفل بطنه . فانتشرت فى الحجرة رائحة نتنة . وفى الحال أخرجت المرأة المنديل الأحمر من جيبها ، وأسرعت بتنظيف جميع الأجزاء الملوثة فى الطفل .

- لا بأس ، أقسم لك !

وركعت على ركبتيها وراحت تمسح سمانتيه ، وقدميه ، وتجفف المكان الذى كان يقف فيه .

كان الكهل يعود إلى رشده على فترات متقطعة . وكانت كل عودة له مصحوبة باشمئزاز شديد بحيث إنه لم يعد يفكر إلا فى تجنبها ، والابتعاد عن أولئك الذين يقلقونه فى سكينته . وكان ثمة شىء غير عادى ، شىء خطير ،يحوم حوله ، ولكنه لم يشأ أن يتلكأ عند هذه الفكرة : « غداً . .غدا ، سنرى . . » وفى حركة رتيبة راحت يده وقد اتخذت شكل الفنجان ، تروح وتجىء بالقرب من حافة فراشه .

ولم تحاول المرأة بعد ذلك أن تخدع نفسها . كانت قد أجلست الغلام ساندة ظهره إلى صندوق فارغ ، وتهيأت لتنظيف الملابس الملوثة . وكان خزينها من الماء قد نفد ، فهزت الجرة ، فوجدت أنه لم يبق فيها إلا ما يملأ قدحا بالكاد . « سأذهب فيما بعد إلى المضخة » كان أهم شىء بالنسبة لها هو أن تتذكر أعراض المرض . فعاد كل شىء إلى ذاكرتها ، بعض المناقشات ، بقايا جمل سمعتها من مذياع المقهى . « إسهال . براز فى شكل ماء الأرز . قىء .ظمأ . شرب ، رغبة فى الشرب . الأعضاء تتجمد ، البشرة تصبح رطبة ، فى لون الشمع المنصهر » .

ما من شك فى أن الغلام أصيب بالمرض . فقالت : « لقد أصيب بالكوليرا » . وكررتها لنفسهـا عدة مرات لكى تقتنع . ثم كررتها بلا ألفاظ مذعنة أنه لم يبق سوى التسلـيم بهذا الأمر . وأن بالتسليم فقط تستطيع أن تناضل ثم تنـتصر . كيف ؟ لم تكن تدرى بعـد ، ولكنها تذكرت : « فى اليـوم السادس قد يحـدث بعث حقيـقى » هكذا قال المعلم . سـيكون هذا حـقيـقـة بالنسـبة لحـسن . وبلا مـجهـود ، استعرضت صورة الطفل ،بعيدا عنها ،فى المستقبل . فرأته ، واقفا ، يافعا ، يسير بخطى مطمئنـة . كان هناك حسن فى ناحية ، والكوليرا فى ناحية أخرى . أما الآن فإن حسن والكوليرا أصبحا شيئا واحدا . فلا بد من قبـولهما معا . هذا مع ذلك . الموت مع الحـياة . لم يعد فى الإمكان الفـصل . ولابد من اجـتيـار هذه المرحلة . وبعـد ذلك يصبح كل شىء على ما يرام .

ومالت « صديقة » على الطفل وكـانت رأسه تسقط ثقيلة من هذه الناحية مرة ومن تـلك الناحية مرة أخرى . فتناولتـها « صديقة » بين يديها وتشابكت أصابعها خلف قفا « حسن » .

وما إن تخلص « حسن » من تشنجاته ، ومن إحساسه بعدم القدرة على التحكم فى نفـسه ، ومن تلك المـادة اللزجـة التى كانت تغطى ساقيه ، حتى استرخى متمددا كانت يدا المرأة الفاترتان وهما تضغطان على أذنيه تحـدثان حفـيفـا أشبه بحفـيف الأجنحة ، وهبوب الرياح فى المساء ، ودق الطبول الصغيرة .

وعندئذ تذكر الطفل تلك القواقع الضخمة ذات الأطراف المتشققة الصفراء من الداخل والتى كان بائع السجائر يجلبها من الإسكندرية . كان « برسوم » هو الشخص الوحيد فى الحى الذى رأى البحر .

ذلك الصوت الذى كان الطفل فى بعض الأحيان يحاول أن يصنعه فى المساء قبل أن ينام - بإدخال سبابتيه فى أذنيه - ها هو ذا يسمعه . فتنهد قائلا :

- البحر !

فكررتها العجوز :

- نعم ، البحر .

ولكى تطيل « صديقة » من متعته ، أبقت على يديها ممدودتين حتى همدتا تماما . ومع أنه لم يعد هناك ما يسند الرأس ، إلا أنها ظلت مستقيمة . وبلل « حسن » شفته السفلى بطرف لسانه ثم نهض بعد ذلك ، دون مشقة ظاهرة . كان يقف جيدا على ساقيه . بل لقد باعد بينهما قليلا حتى يقف أحسن من ذلك . وأدخل يده فى جيبه ، فأخرج كرة خضراء ، من الإسفنج يبدو أن العتة أكلت أجزاء فى بعض مواضع منها . ولم تستطع أصابعه أن تحتفظ بها . فسقطت وقفزت على الأرض فى ضعف ، وانزوت عند حافة الحشية . وعرفها العجوز باللمس وأمسك بها .

كانت الكرة طرية حانية . فأخذ « سعيد » فى الضغط عليها . كان النعاس يغلف السقف والجدران . وأصبحت الحجرة مبطنة ،

وصغرت أكثـر فأكثر : فأصبـحت قفصا ، أو نعشا . نعـشا يستطيع الكهل بين جدرانه أن ينـسى كل شيء . كانت الكرة قطنية ، ناعـمة الملمس . وكان النعاس أغنية راقصة ، وترنيم صلاة ، وبئر ماء .

* * *

قال الطفل متوجعا :

- كل شيء يدور .

وترنح ، وتعلق بالعـجـوز التى جلست هذه المرة وأرقـدت الطفل فوق ركبـتيها . كـان جانبا أنفه يضيـقان ، وشفتـاه تزرقان . وعيناه السوداوان المتقدتان أصبحتا الآن من مادة طرية كامدة . كان « حسن » يكثر من الحركة . فجعلت تهـدهده . وكان يتقلب باستمرار . ولكى تجعله يركن إلى الهدوء وتعطى لنفسها مهلة للتفكير ، شرعت تتحدث إليه بصوت مرتفع تحكى له قصصا كعادتها :

- سنذهب غـدا حتـى النهر . وسـأغـرس فى حذائى عـودا من القصب ، فيـصبح قاربا نستطيع أن نركب فوقـه . . . وسنحمل معنا أوزة ، ودجاجة وكـلبا ، والعنزة « فيلو » إن لكل قارب يسـرى فوق المـاء مائة قارب تصاحبه تحت المـاء .

كانت تقول كل ما يخطر ببالها ، وكان الطفل يستمع لها .

- إن شـارب الكاتب العـمـومى مـصنوع من العـشب الرفـيع . والخطابات التى يحـررها رقيقـة كالأهداب . وعندما تـكبر ستـصبح خطاباتك أنت مثل النجوم ، مثل الشوارع الواسعة ، مثل المدن . .

وهدأ الطفل . ففى يوم ما سيكبر . هذا أمر أكيد .

- « إن الظل ، والليل هما قناعا الشمس . . أتسمعنى ياصغيرى ؟ إن الشمس ليس لها رفيق . إنهـا تلعب وحدها . هى دائما وراء هذه الوجوه السوداء . إنـها تختفى ، ولاتموت أبدا . إنهـا تعود دائما . . والمرض كذلك . هل تعرف معنى المرض ؟ » .

وانتظرت لحظات حتى تواتيها الكلمات .

- . . إنه أيضًا قنـاع . شبكة كبـيرة نقع فيـها ، مـثل السمك . ولكن هناك دائما أسمـاكا تناضل وتنجو . وبعد ذلك تكون أكـثر قوة مما كانت . . إن الأسماك فى قاع القارب ، إنما هى بساط من الفضة . ولكن الأسماك التى تقاوم الوحوش فى قاع المياه وتعيش ، هى أجمل شىء فى الوجود !

كان الـطفل ساكنا . وكـان النهر يولى أدباره ، ومن خـلال الكوة خفت حدة الضوء .

- من يدرى ، ياصـغيـرى ، لو أننا حـفرنا حـفرة حـتى أحشـاء الأرض ، فربمـا وجدنا أحـجارا حيـة . نعم ، فربمـا كانت الحـجارة تتدفق حيـاة ونبضا . . كل شىء يتدفق نبـضا . إن الآلام ، والدموع فى هذه الدنيا إنما هى بلا ريب نبضات من قلب الله .

كـان « حسن » نائمـا . وكـان دلو من الرمـال يفرغ بين صـدغى العجوز فأصبحت كلماتها غامضة :

- عندما يمر البـجع فى المرة القادمـة ، سنذهب لنتفـرج عليه من أعلى القلعة . . البـجع . . وسقـطت رأسـها إلى الأمـام ، ثقيلة ، من الرصاص . كم من الوقت مضى على تلك الحال ؟

* * *

وعلى حين فجأة اندفعت عـربة الإسـعاف داخـل الحجـرة وهى « تطنطن » . كـانت ضخمـة . فى بياض ناصـع . غشيت منه عـينا المرأة . فنهضت بكل قامتهـا وجعلت تناضل ضد السحنة الحديدية . ومن حولها كان السقف والجدران تنهار .

كانت تصرخ بأعلى عقيرتها :

- اخـرجـوا ! إن الطفل طفلى . . ولـن يأخـذه أى شـخص . . أى شخص !

وأيقظها صراخها مذعورة ، فأيقظت الطفل النائم .

الفصل الخامس

لم تعد هناك دقيقة واحدة لتضيّعها .

ومع أن « صديقة » كانت تشعر بثقل الطفل فوق ساقيها ، إلا أنها لم تكن ترى « حسن » . فرفعته فى حذر ثم مالت إلى الأمام وأرقدته على الأرض . وجعلت تتحسس فى الظلام باحثة عن صندوق قديم من الحديد فى ركن من أركان الحجرة كان به بعض الشموع .

فأخذت إحداها وأشعلتها وثبتتها على الأرض فى قليل من الشمع المنصهر . فأصبحت الحجرة واضحة . واعتقدت « أم حسن » أنها ترى عيونا ترصدها ؛ لأن المتراس بمسماره الناقص كان يبدو لها من الجنب وكأنه تمثال أو صورة . والباب ؟ . . إن قبضة كهل قد تكفى لتحطيمه .

فقالت وهى مائلة فوق الطفل :

- سنرحل .

كانت عينا « حسن » ، وقد اتسعتا بطريقة عجيبة ، تتعلقان بنقطة غير مرئية . وفجأة ، وقد هزته الرعشة ،انتصب واقفا وتقيأ أمواجا ؛

فـأسندت العجـوز ظهـره إلى كـرسى مقـلـوب ، وجفـفت فمـه ومقدمة ثوبه .

- عطشان . . . ؟

كان لسانه يتدلى ، جافا ، أحمر على مشارف فمه .

- انتظر سأعود .

وملأت القدح حتى منتصفه ، وحملته إليـه ؛ فغمس فيه شفتيه ، وابتلع جرعة أو جرعتين سرعان ما تقيأهما فى الحال .

وتوسل قائلا :

- لأذهب إلى المستشفى . . .

- أبدا ! سنرحل . لا تخف . لا الناس ، ولا الموت سـيلحـقون بنا . . إن الظل هو مرض الشمس ، وتذكر أن الشمس تنتصر دائما . إنك أنت شـمـسى . أنت حيـاتى . لا يمكن أن تمـوت . إن الحيـاة لايمكن أن تموت .

ثم أضافت قائلة :

- سأذهب لإعـداد العربة . لا تقلق ، فلن نلبث أن نصبح بعـيدا عن هنا .

وتسلـلت وشمـعتهـا فـى يدهـا إلى الفـناء الصغيـر ؛ فـاقـتربت منـها العنزة ، وتمسحت فـى ساقيـها ؛ فحـلـت العجـوز وثاقها . « فيلو » أيتـها الشهمـة أيتـها الجميلة ،ثم تـسـاءلت وهى تتـفحص

العـــربة «إلى أين تذهب ؟ » . وتراقصت أمامهـا صورة أشجار ومياه وحقـول خضراء . « بل ســأذهب حتى منتـصف المدينة ، وهناك لن يأتى أحد للبحث عنى » .

وتحت الضوء الأخضر ، تفحصت جانبى العـربة واختبرت ذراعيها ودقت على عجلاتها . كـان كل شيء يبدو على ما يرام . فألقت فى داخل العربة جوالا من الفول ، وأرغفة من الذرة وتمرًا ، وعددًا كبيرًا من الخرق التى سترقد الطفل عليها .

وعند عـودتها إلى الحـجرة ، لاحظت أن الكهل لا يزال نائـما ؛ فركعت بالقـرب منه ودست ذراعها تحت الحشية فسـحبت مظروفا من جلد المـاعز مليئا بمدخراتهم ، ثم عدت نصف المبلغ ودسته فى جيبها قبل أن تعيد النصف الآخر إلى مكانه .

وحلت لحظة راودتها فيـها فكرة إيقاظ سعيـد ، وأن تشرح له أمر هذا الرحيل ، ثم رأت أن من الأفضل أن تتركه نائما ، فإنه لن يلبث أن يمتثل لغيـابها . فمنذ زمن طويل وهو معـرض عن الدخول فى أية معركة . وقـالت لنفسها أيضًا ، إن جاره « يعقـوب » سيتكفل بأمره مرة أخرى .

أما الطـفل الذى كان قد نـقل إلى الفناء الصغـير فـها هو ذا الآن سطيح فى قاع العربة وقال قلقا :

- إلى أين ؟

- إلى الشفاء .

- أهو بعيد ؟

- إنه أمامنا .

كانت المرأة مائلة عليه - والشمع الساخن يسيل على أصابعها - فسألته ألا يبكى وألا يصرخ وأن يكون صبورا . فأومأ بالإيجاب فارجا شفتيه بالكاد . فإذا بالأشعة الضعيفة تنير فمه كاشفة عن الفرجة التى بين أسنانه الأمامية . فتذكرت المرأة أن تلك علامة من علامات الخطر ، فوضعت طرف سبابتها لحظة فوق الفراغ الضئيل وقالت :

- إنه مكتوب ، إن الشمس هى غاية طريقنا .

وأمسكت شمعتها - وكانت قد ثبتتها قبل قليل فوق قطعة من الفخار - وعادت إلى الحجرة لتلقى نظرة أخيرة . كانت الفتيلة فى سبيلها إلى النفاد . وتحت وهج اللهب كان وجه « سعيد » النائم يشبه قناعا من التنك .

فهمهمت قبل أن تنسحب :

- كان الله عونك ومرشدك .

وعند عودتها إلى العربة توجهت إلى باب الخروج . مصراع قديم رفعت مزلاجه فانفتح مطلا على حارة صغيرة تفحصتها طويلا . ولما وجدتها هادئة ، خالية ، ينيرها ضوء القمر بما فيه الكفاية ، رأت أن اللحظة قد واتت لكى تطفىء شمعتها .

ثم دفعت العربة وأجبرتها - بعد محاولات عديدة - على اجتياز حجر العتبة . وكان شىء ما يتحرك خلفها . كانت « فيلو » وهى تجر

وثاقها قد تبعتهما حتى منتصف الممر . فأبعدتها المرأة بدفعة من يدها . ولكن العنزة أصرت ، فكررت المرأة محاولتها لتصرفها « شت .. شت .. » ولكنها لم تنجح . فاضطرت « صديقة » عندئذ أن تمسكها من قرنيها وتجرها حتى داخل الدار . وأغلقت دونها الباب وثبتته بخابور قديم كان فى الغالب يستخدم وتدا تقيد إليه العنزة فى الخارج .

ورحلت « أم حسن » هذه المرة ، وذراعاها إلى الخلف وجسدها إلى الأمام ، تجر العربة والطفل . ولكن البهيمة كانت لا تزال تصر على عنادها ، فكانت تدق الباب الموصد بجبهتها . وظلت المرأة ، شوطا طويلا من الطريق تسمع تلك الضوضاء العنيدة المكتومة .

* * *

وبعد أن قطعت شوطا من الطريق ، كان صرير العجلات يقطع الصمت ، فخشيت العجوز أن توقظ الجيران . والتفتت عدة مرات ، ولكن بابا واحدا لم يفتح أمامها ، كانت تقول لنفسها « إنهم جميعا معى . حتى الجدة « زكية » على الرغم من لسانها لسان العقرب » وربما كانوا فعلا فى قلوبهم الهامدة لا يفكرون إلا فى إنقاذها . لقد أراحتها هذه الفكرة حتى خرجت من الحى .

بعد انعطافات أخرى ، وصلت إلى شاطىء النيل . كان هناك سور (كورنيش) طويل يفضى إلى الجسر . ولا ينتهى هذا السور ، بل يمتد إلى عدة كيلومترات . وكانت المرأة تتمنى أن تجد نفسها فى المدينة قبل الفجر . « إن حجرة الغسيل يمكن أن تكون ملجأ أمينا . ولكن أية حجرة ؟ » .

كان الطـريق المرصوف حديثـا يلتصق بنعـليها الـرقيقين . وكان « وابور الزلط » الضخم وهو ثابت لا يتحـرك أشبه بوحش على أهبة أن يسويك بالأرض بعجـلاته السوداء فتعدته بسـرعة . وإذا بها تلمح بالقـرب منها ، فوق كـومة من الحـصى ، رجلا يرتدى جلبـابا وينام متـمددا بكل طوله . فأيقظتـه ضوضاء العـجلات ، فقام مـذعورا ، وجلس وهو يفرك عينيه . وصاح بينما كانت المرأة تواصل طريقها :

- هـو ! هو ! أين تذهبـين فى هـذه الساعـة ؟ لن تجدى إنسانا فى السوق .

فأجابته قائلة :

- نم ، يا رجل . لقد جعل الليل للنوم .

وجـعلت « صديقـة » ، وهى تتكلم ، تدير العـربة فى بطء لكى تجعلها أمامها .

- أنت على حق أيتها العجوز ! لقد جعل الليل للنوم .

وعاد العـامل إلى رقاده ، شـابكا ذراعيـه ، إلا أن رؤوس الحصى أصبحت الآن تخدش ظهره :

- أيتها العجوز الملعونة ، لقد كنت أنام هانئا .

وكـان القطـران المنتـشـر فى المكان يمـنعـه من النزول إلى عـرض الطريق ، فجلس من جديد :

- ستوقظهم جميعا من نعاسهم . . . تلك العجوز الملعونة !

ألقى هذه السبة ناظرا إليها وهى تبعد .

وعلى طول الكورنيش ، لم تصادف أحدا بعد ذلك . كانت بعض قطرات العرق تسيل على صدغيها ، وكانت ثيابها تطبق على ساقيها الرطبتين . وبعد أن اجتازت الجسر استراحت لحظة بالقرب من سوره الحجرى .

مما لا شك فيه أن الطفل كان نائما ، لأنه لم يكن هناك شيء يتحرك بداخل العربة . فأغمضت « أم حسن » عينيها واستنشقت نفسا من الهواء ، وطردته ، ثم تنفست من جديد . وبعد ذلك ، وقبل أن تخوض فى المدينة ، تطلعت إليها طويلا .

وتحت القمر الأشقر ، كانت جميع الأنوار تقسو وتشتد . ولاحت المدينة حاقدة ، سائلة فى المعدن . كانت بعض الغربان ، وهى مصطفة على حافة الإفريز ، أشبه بدمًى من الحديد . وكانت أغصان الأشجار النادرة وأوراقها جامدة لا تتحرك . هذه المدينة بسمائها النحاسية الحمراء ، ومبانيها الحديدية ، وأشجارها ذات المخالب ، ومنازلها ذات الزوايا الحادة الموصدة على أناس جامدين ، هذه المدينة ، ماذا تكون ؟ ربما كانت ماردًا راح فى سبات عميق ولن يلبث أن يستيقظ لكى يسحقها ، هى والطفل ؟ ولكن أى مخرج آخر كان أمامها ؟ لم يكن لها الخيار .

- إننا نقترب .

قالتها بصوت مرتفع حتى يتمكن « حسن » من سماعها .

الفصل السادس

كانت الشوارع تمتد طويلة بين مصابيحها المطفأة. من بعيد ، لمحت « أم حسن » عربة رش البلدية التى بدأت جولتها . فحدثت نفسها وهى تدفع العربة بقوة أشد : « لن يلبث النهار أن يطلع » .

وفى وسط الميدان كان الرجل البرنزى الواقف فوق قاعدته ، ويده ممدودة إلى الأمام ، يستجوب هذه المدينة التى لم يعد له مكان فيها منذ فترة طويلة . ودارت « صديقة » حول التمثال مجتازة الشارع الكبير .

كانت معظم واجهات المتاجر تختفى وراء قضبان من الحديد ، وكانت السلع تبدو من بعضها خلال الواجهات الزجاجية المغطاة بالقضبان . وكان هناك مطعم اشتهر بجودة فوله يحتفظ ببابه منفرجًا طوال الليل ، وكان الناظر يستطيع أن يلمح فى أقصى الداخل، نور إحدى الحجرات مضيئا .

كانت المدينة ساهرة ورأت « أم حسن » أن من الضرورى أن تختفى بأسرع ما يمكن .

وعلى حين فجأة خطرت ببالها عمارة اليونانى التى تقع فى أقصى أحد الأزقة .

إنها أقرب ملجأ فالسيدة «نائلة» الخياطة التى عملت عندها «صديقة» ، تملك فى الطابق السادس حجرة غسيل . « سأدق جرسها » ورأت نفسها تضغط بطرف إبهامها على الزرار النحاسى المرن . وخيل لها مقدما ، على طول الممر الطويل ، أنها تسمع طرقعة خفّى الخياطة المزينين بالريش على مقدمتهما . وأخيرا ظهرت الخياطة وعلى وجهها مسحوق أبيض ، وشعرها الأحمر المجعد يغطى جبينها وأذنيها ، والعقد الأبدى الذى نظم من الزجاج الأسود حول عنقها .

- إيه ، صديقة ماذا جاء بك ؟
- أريد عملا . . .
- ليس عندى عمل لك يا حبيبتى !

كيف تقول بعد ذلك إنها تحتاج إلى مفتاح تلك الحجرة ؟ كانت الخياطة فضولية متطفلة، فقد وجهت إليها سيلا من الأسئلة . مع ذلك فقد واصلت العجوز سيرها فى اتجاه العمارة . إن المكان يناسبها لسبب آخر : فالزقاق يستخدم كحظيرة للعربات ، واعتقدت « صديقة » أن أحدا لن يلحظ وجود عربتها .

« سأنتظر ابن أختها الطالب . . إنه ينزل مبكرا ، سأطلب منه هو المفتاح . فالرجال أقل ريبة من النساء » .

ولما كانت منفعلة بأفكارها ، لم تفكر فى المجهود الذى كانت تبذله فى دفع العربة ، ولا فى التقلصات التى كانت بذراعيها . .

كانت « أم حسن» تسير بخطى مطمئنة ، عندما سمعت شخصا يناديها وهى تنعطف عند زاوية أحد محلات المجوهرات . فتظاهرت بعدم السماع . ولكن الصوت عاد من جديد . ونهض الشخص لكى

يتبعـها . فالتفـتت ملقية نظرة من فوق كـتفها . فـرأت ذراعًا ، تمتد خارج كومة من الخـرق . وعلى وجه السرعة ، أخرجت من جـيبها بضـعـــة ملاليـم ألقت بها عند قـدمى الشـحاذ . ولكنه أصـر على اتباعها :« إنه شرطى يختـفي تحت هذا القناع » فجمدها الخوف. ولم تفـهم الحـقيـقة إلا عندمـا رأت الرجل يتعـثر عند حـافة الرصـيف فأدركت أنه ضرير . وعندئذ وضعت ذراعى عربتـها أرضا . واقتربت من الشحاذ وانحنت لتلتقط النقود . وبعـد ذلك وضعتها له فى راحة يده ، ماسكة بيـده من أسفل ومـغلقة أصابعـــه ذات النـدبات حول قطعة النقود .

- أيتـها السـيدة الرحيـمة ، أنا لا أعرف وجـهك ، ولم أسمع صوتك ، ولكننى أحرز من تكونين ! أنا أحرز من تكونين !. . .

واستمر الضرير فى مدحها ، بصوت مرتفع ، بعد أن غابت بفترة طويلة.

* * *

كـان الفجـر يصـبغ الجدران بلون البـرونز . وكـانت الطيور قـد استيقظت بين أوراق الأشجار الضخمة وسط الميدان الصغير .

و لم تتمكن « صـديقة » وهي تدفع العربة في الزقـاق أن تتجنب الهزات ، فكانت أحشاؤها تتمزق وهى تفكر فى الآلام التي يعانيها الطفل بسبب ذلك . وفى أقـصى الزقاق كان يقوم دكـان من الخشب عليه لافتة خضراء - صـفحة من الزنك كسرت نصفين، كل نصف لايزال متـعلقـــا بمسمـار - عليهـا العلامة المميزة لأحـد المشروبات الغارية. فـمنذ أن تفشى الوباء وحظر بـيـع المياه الغازيـة ،ترك البائع دكانه. فدفعت « أم حسن» باب الدكان الفارغ، ثم عادت لتأتى بالطفل .

ونزعت القمـاش فى بطء فكشف عن وجه « حـسن » وارتعدت وهى تنظر إليـه . كـان الطفل طـريحا بـلا حراك ، راقـدا أشـبـه بالبندقيـة. ولكى تكتم أنينها، لصقت قـبضتـها بفمهـا ، كانت هناك هالات سـمراء تسـتـشرى في وجـهـه . فلم تعد تطيـعـها ذراعـاها وساقاها. وقالت تحدث نفسها : « هيا هيا . . » .

ورفعت الطفل ، وحـملته إلى الداخل . ثم أجلسـته على الأرض وأسندت ظهره إلى صندوق أحمر ملئ بالزجاجات الفارغة .

– انتظرنى هنا ، إننى ذاهبة للبحث عن حجـرة سنكون فيها على مـايرام . لا تصرخ ، ولا تـناديني ، لايجب أن يسـمعك أحـد . . سأعود . ورمقته بنظرة مـتوسلة ، فأومأ الطفل بالإيجاب. كانت أقل حركة تتطلب منه مجهودًا ضخمًا .

« يا طول صبرنا ! » خطرت لها هذه العبارة وهى تعيد إغلاق المصراع خلفها وتتجه ناحية أقرب عـمارة . « يا طول صبرنا وصبر أولادنا! » .

وتسلقت الدرجات الـثلاث ، ودخلت . كانت الجـدران الداخلية مغـضنة ، مغطاة فى بعض أجـزائها بكتابات وقـشور ولم يكن أعـيد طلاؤها منذ عهد بنائها ، وهو يرجع إلى أربعين سنة تقريباً .

واستقـرت المرأة عل المقعد الذى كـان يشغله فيمـا مضى « على » البواب الأعـور . وكان قـد مات قبل عـدة شهـور ، ولم يحلّ أحد مكانه. وكان «على» هذا رجلا ورعا لا يفتأ يتمتم بالدعاء والتسبيح . ومن مكمنهـا في بسطة السلم ، دعت له « صديقـة » آملة أن يسمع دعاءها من المكان الذى يوجد فيه .

وطلع الفجـر كالبرعم ،فـغمر الـزقاق ومدخل العـمارة بالنور ،

وتوقف حول المنطقة المظلمة التى كانـت تحـيط بالمقعد . كانت قـدما «أم حسن» فقط غـارقتين فى النور ، فأخرجتهـما من الحذاء وتطلعت إليهـما، كانتـا صفراوين ، لامعـتين ، وكأنهمـا منفصلتان عن بقـية جسدها . ثم امـتد الانتظار طـويلا. أليما . .وضـاعفـه الانتظـار الآخـر ، انتظار الطفـل ،وعلى أثر أى ضـوضـاء ، كـانت تأمل أن تتعرف فيها خطو الطالب .

ومضت ساعـة على تلك الحال ، وهى صابرة وقد شدت نصـفها العلوى ووضعت إحدى يديها فى اليد الأخرى .

وإذا بخباز يحمل فوق رأسه أرغفة في جوال أبيض يصعـد السلم وهو يصفر. ثم جاء دور اللبان وراحت الأبواب تفتح واحدا تلو الآخر.

وبعد قليل . نزل الشاب - كانت «صديقة» تعرفه حق المعـرفة ، فقد رأته وهو يكبر .

وسأل الطالب وهو يجتاز العتبة :

- من ينادينى ؟

- ألا تعرفني ؟

فالتفت إلى بسطة السلم :

- أنا لا أرى شيئا .اقتربى . .

فتقدمت قائلة :

- أنا الغسالة .

- لقد عـرفتك الآن . . أين كنت خلال هذه الفتـرة الأخيـرة ؟ هل كان غيابك عنا بسبب الكوليرا . . . ؟

- نعم بسبب الكوليرا . . .

- والآن انتهى كل شئ. لحسن الحظ كل شئ يمضى .

- أجل ، كل شئ يمضى . . .

- اذهبى إلى خالتى وستعطيك عملاً .

- لست بحاجة إليها ، وإنما أنا بحاجة إليك أنت .

- أنا ؟

- نعم ، فلم يعد لى منزل . . لقد انهار منزلى . ولابد لى من مأوى لمدة يومين أو ثلاثة أيام . وبعدها سأعود إلى أسرتى فى الريف . . هل تستطيع أن تعيرنى الحجرة العليا ؟

- سأرى ذلك . هيا بنا . . فقاطعته قائلة :

- اسمعنى ، ما فائدة النقاش ؟ لن تعرف السيدة نائلة شيئاً عن ذلك . إنها لاتصعد إلى السطح إلا يوم الخميس ، ويوم الخميس سأكون بعيدا ، وسأكون قد أعدت المفتاح تحت المدوسة .

ونظر الطالب إلى ساعته . لقد حان وقت الانصراف، وكان المفتاح فى الردهة ، داخل إناء زهر صيني ، ولن يلاحظ أحد اختفاءه - هذه السيدة على حق ، فلماذا المناقشة ؟

- اتفقنا ، انتظرى هنا .

وانحنت العجوز ، وتناولت يد الشاب تريد أن تقبلها .

- كلا ، لا تفعلى هذا .

قالها وهو يسحب يده بسرعة . واختفى عند زاوية البسطة الأولى . وسمعته وهو يصعد الدرجات أربعا أربعا .

كانت «صديقـة تضغط » على المفتاح في راحـة يدها ، بينما كان الطالب يختفى . وسألها قبل أن يترك الزقاق :

- وبالمناسبة ، أين الطفل ؟

- سأذهب لإحضاره .

- ألا يزال ماكرا خبيثا ؟

- إنه مليئ بالمكر . إنه يفوقنى في ذلك .

فاستطرد الطالب وكان يحب الأمثال :

- الكبار يتعلمون من الصغار .

والتفت مرة أخرى لكى يسألها :

- هل سترسلينه إلى المدرسة ؟

- بالتأكيد . . فيما بعد ، فسيصبح ذا شأن.

- نعم بالتأكيد .

وانصرف هذه المرة .

لم يكن الطالب يحب العجلة . فجـعل ، وهو يقترب من الميدان يعد العربات مع أصحابهـا النائمين على شكل دائرة . وبعد مسافة ، رفع رأسه ناحية العمارة الصفراء .لم تكن الفتاة فى شرفتها . بنظرتها الثابتـة البعيدة . فـإلام كانت تنظر ؟ أن يأخذ هذا الوقت الجـامد فى السير على حين فجأة ؟ ربما أشـار لها ذات مساء ؟ لمجرد أن يرى ماذا يحدث . ولكن لن يحـدث شىء، لقد كان واثقا من ذلك مـقدما . لاشيء يحدث هنا .إن الأيام تتشـابك الواحد فى الآخر . إن الثورة تستولى عليك كغضبة شديدة وتعضك مرة واحدة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى الرقـاد ، إن البعض يشـعرون - فى فتـرات قصـيرة ، فى

ومضات بارقة بالحاجة إلى اليقظة ، ولكن أية يقظة ؟ ضرورة التغيير ولكن لأية غاية ؟ ثم ينمحى كل شئ خلال نزهة ، خلال مناقشة ، خلال سوقية المقابلات وتفاهتها ، ويرجأ العمل إلى الغد . ما مصدر هذه المشكلة القائمة ؟ يبدو أننا نتقدم وسط موجة بشرية من الأحلام الغامضة والأمانى المبهمة ، و المشروعات التى لا تتحقق أبدا . الأمل يفقد نضارته . سأم لذيذ ويسير يلتصق بالجلد . إن أرض هذا البلد ثقيلة ، ثقيلة جدا .

* * *

كان الطفل فريسة موجة من التشنجات العنيفة . . كانت ذراعاه وساقاه تتدافع فى كل اتجاه . . لذلك فقد كان طريح الأرض. ومع ذلك فقد بدا أن دخول « أم حسن » عليه قد هدأ من روعه . فانحنت عليه وجلست على عقبيها . فمنذ ليلة أمس وجسدها يطيعها كأنما لاعمر لها . كان تنفس الطفل سريعا متقطعا ، وكان لسانه يتدلى خارج فمه فقد كان يحس بالعطش.

لقد وجدت الحجرة ! فوق السطح ، بعيدا عن الجميع . سنكون على راحتنا . يوجد صنبور ماء ! . . كانت تلهث من اللهفة . . كل المياه التى نريدها . ستشرب وتشفى ، يا روحى ! .

ودثرته بعد ذلك في غطاء قديم ، وحملته ، لقد بدا لها أخف مما كان قبل قليل.

– الآن ، أنا أفتح الباب . إننا فى الزقاق وهناك أناس بعيدون ولكنهم يولوننا ظهورهم . ها هى العمارة .

وخلال الطريق لم تكف عن التحدث إليه كما لو كان عليهما أن يفعلا كل شئ معًا :

- إننـى أصعد الدرجـات .. واحـد اثنـين .. ألا تشعر بألم شـديد ؟ فالتصـق بهـا . كـان نفسـه الحـار يخترق صديريتـها . « لقد اقتربنا » .

ولكى تتشـجع ، تصـورت الحـجـرة وجـدرانهـا الجـيـرية وصنبورها النحاسى .. يكفى أن تـفتحها حتى يتـدفق منها ماء نقى ، ملئ بالفقاعـات . « سأنظفك . وستشـرب ... » وأمام هذه الصورة كانت تشعر بالنشاط .

« لم يبق سوى ثلاثة طوابق ... » وعلى البـسطة التى كانت قد تركـتهـا قبل قليل خـرج زوجان كـانا يتشـاجران . واصطك أحـد الأبواب ، وفتح باب آخر فأسرعت العجوز الخطى ، ولكن الطفل بدأ يصبح ثقـيلا ، فتوقـفت لتلتقط أنفاسـها قليلا . وعندما اقـتربت من الحاجز مالت ، وتطلعت إلى أعلى : « لم يبق سوى طابقين » وخيل للطفل أنها لن تنتهى من الصعـود أبدا . وكان يتعلق بها كأنما يوشك على الغرق . « هيا سينتهى هذا سريعا » . وأخذت تعد الدرجات . كانت سـاقاها تثقلان « لم يـبق سوى عشر ... » ثم قـالت بصوت مرتفع : « خمس ، أربع .. اثنين .. واحدة . وفوق آخر درجة ، كان قـد تبقى لديهـا من القوة مـا يكفى بالضـبط لأن ترفع بمرفقـها اللسان الذى كان يغلق باب السطح .

وفى الخارج ، استندت لحظة طويلة إلى الحاجز .

من حـول العمـارة ، كانت هناك أسطح أخـرى متناثرة تمتـد على مدى البصر ومن بعيد كانت كـتل المنازل تبدو نقطا سمراء مسطحة . وفى الشـرق كـانت سلسلة المقطم الجـبليـة الصحـراوية تشـرف على

المــدينة .. تعلن عن محــيط الرمال الذى ينتشر فى بــعض الأحيان فوق المدينة فى رياح مائلة إلى الاحمرار ..

وفى الحجـرة كان كل شئ في مكانه : الطست ، والموقـد وقطعة من الصابون ، والعصا التي تستـخدم في تقليب الغسيل وهو يغلى . وكـان الجـدار الأبيض يعكس النور ، وكـان الصـنبـور يلمع فى لون الذهب ، بل أجمل وأزهى من الذهب ، بنقطته المعلقة .

- لقد نجونا ! هل تسمعنى يا صغيرى ، لقد نجونا ! .

الجزء الثانى

الفصل الأول

كان الأصيل يحنو على الأحياء ، ويطبع النهر والأشجار ، ويصبغ الحجـارة بلون وردى ، عندما ظهـر "أوكاريون" - مـروض القرد - فوق أعلى درجات وزارة الصحة التى شرع يهبطها في بطء شديد .

كان يمسك فى مباهاة بين سبابته وإبهامه بورقة مالية من فئة العشرة جنيـهات تركـها لحظة ترفـرف مع النسيم .ثم هزها بالقـرب من أذنه وتلذذ بحفيفها .

عشـرة جنيـهـات ! إنـه لم يملك فى حيـاته مـثل هـذا المبلـغ . ثـم تفحص الورقة الخضراء .

حريرية ، ناعـمة ، خارجة حـديثا من المطابع ، إنه بالتأكـيد أول مـالك لهـا. ولكى يخـلص يده الأخـرى دس المروض عـصـاه تحت حزامـه ، وناول الورقة صفعة ، فسمع طرقعة جافة جعلته في قمة متعته .

وقال لقرده ذى المؤخرة القرمزية وهو راقد على كتفه :

- « مونجا » يا قردى ! الحمد لله ، إننا لسنا مجنونين كما يبـدو علينا ».

فضلا على ذلك ، فقد عبر له الموظف قبل قليل ، بالنيابة عن الوزير، عن تهانيه على عمله الوطني الإنساني. بل لقد أضاف قائلاً :

- إن الجرائد ستتحدث عنك وستذكرك مثلاً يحتُذى . دون ذكر اسمك ، طبعا ، حتى تتمكن من الاستمرار في هدوء واطمئنان . - «مونجا» ، ابني ، عاشت الكوليرا . . . إنني كالبصل الذي يتدخل في كل شيء ، ولكن واسفاه ، لقد أدركت بعد فوات الأوان أين مصلحتنا . . . ياللخسارة ! إن الوباء يقرب من نهايته . لو كنا عرفنا ذلك منذ مدة ، لكنا قد أصبحنا من أصحاب الملايين وملكنا قصرا يرتفع حتى السماء ، ولما رقصنا إلا عندما يحلو لنا . . . ولكن من يدري يا « مونجا » ؟ ربما كان الحظ لايزال ينظر إلينا ، ولن نلبث أن نعثر على حالات أخرى نخبر عنها.

وفي قفزة واحدة ، كان القرد قد نزل إلى الأرض يجر سلسلته وهو فريسة لنشوة جنونية .

- اهدأ ، اهدأ يا «مونجا » ! استرح . . . سأقدم لك قرطاسا مليئا بالفول السوداني ، بينما سيحصل سيدك على ألف نفس من النرجيلة مع كوب من الشاي أكثر سوادا من السخام .

وبعد قليل ، كان « أوكاريون » وهو جالس في الحان ، يهتز في استرخاء فوق أحد الكراسي . كان المكان أشبه بصندوق مليء ، جدرانه على وشك التصدع . وكان الرجال يتبادلون العبارات بصوت مرتفع بين الموائد، بينما كان النادل يمهد لنفسه بمشقة طريقا وسطهم . وكان هناك مذياع ينشر موجات من الكلام تقطعها الأغاني والأناشيد .

كان المروض يناجى نفسه قـائلا « فلنشـرب فى صحـتنا يا «مونجا» . أطال الله نعيمنا ، كأيام الصيف الطويلة . . . »

أمـا القرد ، وقـد خبلـه الطعام والرائحـة والضـوضاء - وكـان يجلس القرفصـاء بالقرب من كومة من القشـور الفارغة - فقد تكور عند قـدم سيده ودس أنفه فى جلبابه الأزرق .

* * *

وعند منتـصف الليل تقريبـا ، نهض « أوكازيون » وخـرج . في خطوة متراخـية يتبعـه الحيوان المقيد إلى حـزامه من سلسلة مرنة واسـعة الحلقات ، توجه إلى الحديقة العامة التى كان ينوى أن يقضى فيها الليل .

ولكى يصل إليـها . راح يخـترق الحـى السكنى . كانت الحـدائق تنام مستـرخية تحت سماء مـستديرة ترقمهـا النجوم . ومر بين عمـارتين عاليتين بيضـاوين لهما نوافـذ خضراء كان يأتى بالقـرب منهما فى بعض الأحـيان . فتوقف المروض ليتأملها طويلا . وخـلال هذه الفترة ، وبعد أن تشمم القرد المكان وتعرفه ، شرع يؤدى سلسلة من الحركات البارعة .

فقال « أوكاريون » وهو يربت فخذيه :

- مونجا ، عـيني ، قلبى ! اقفز ! . . إن فى حنجرتك صـوتا ، فيجب أن تغنى . . اقفز حـتى تصل القمر إذا كان هذا يسـرك ! ولكن هذا المساء ، تذكـر ، اقفـز فقط لمتـعـتك أنت ! إننا لانطلب شـيئـا هذه الليلة . إن من لايحتاج إلى شىء إنما هو حر ، نحن أحـرار . هل تسمعنى ،أحرار ! . . لا أحد فى هذه المدينة أكثر حرية منا ! .

ولكن بعد لحظات ، كـما لو كان دمه يغلى ، بدأ المروض يؤدى حـركاته المعتادة .

فشرع يدور على ساقيه المثنيتين وهو يقرع الطبلة المعلقة بجسمه محدثا بيده الأخرى دوائر بواسطة عصاه ، وعلى وجهه ترتسم ابتسامة عريضة . . لدرجة أن وجهه بدا مشطوراً إلى نصفين . وكانت عيناه المغضنتان تختفيان وراء جبهته البارزة وحاجبيه الكثيفين.

وكان « مونجا » يدور بسرعة ويتحرك فى كل اتجاه ، ويرفع قبعته ويهز رقبته لتصلصل الأجراس الثلاثة المثّبتة فى قلادته الجلدية ، ويكشف عن أسنانه الصفراء .

وقال المروض لقرده متغنيا وهو يجره إلى حلقته الراقصة :

مونجا ، حبيبى . . انظر إلى سيدك ! . . إن أمامك رجلا ثريًا ومواطنا صالحا .

هل كان يخطر ببالك أن أصبح بهذه السهولة مواطنا محترما ؟ . . إننى أثير إعجاب عظماء هذا العالم ، يا مونجا ! بعد مدة قصيرة ، لو منح الله الكوليرا فترة أخرى من العمر ، لتحققت سعادتنا ! .

كان ضوء القمر كافيا وسط سماء تشتد ظلمة .

كان بعض الساهرين يطلون من إحدى الشرفات . فراحت القروش المصحوبة بالضحكات تنهال فى الحارة .

وأنارت فتحة فى العمارة اليسرى . وعندئذ ظهرت فى إفريزها سيدة ترتدى ثوب البيت . وبحركة تنم عن الود ، ألقت التحية إلى الساهرين فى الجهة المقابلة ، ثم اختفت .وبعد لحظات ، عادت وأدلت يدها من حاجز النافذة وألقت بقطع نقود لا حصر لها .

وفتحت نافذة أخرى ، ثم ثالثة .وسرعان ما انتشرت فى العمارتين بقع من النور. ومن طابق لطابق ، ومن منزل لآخر راح الجيران يتمازحون ، وكانت أصواتهم ونداءاتهم تتداخل وتتشابك .

- يا للبهجة هذا المساء، يا للسرور ! إنهم جميعا يعرف بعضهم بعضًا،

صحيح أنهم فى عالمهم ليسوا مثلنا ، أسرار ! بلايا وأسرار ! . . ما هذا التهافت الذى لا ينتهى علينا ؟ علينا نحن وليس على أحد سوانا . . فى الماضى ، كان الحمال أو الخادم يمكن أن يطارد المروض بمجرد أن يراه يشرع فى قرع طبلته « أنت هناك ، بقردك هذا ، أغرب عن هنا ! » بينما هذا المساء . . « استمع إليهم ، يا مونجا . إنهم يصفقون لى ! . . أنا ملك . ملك المهرجين . إن الإنسان مثل الشجرة ، تارة عريانًا ، تارة مكتسيا!» ورفع ذراعيه فى عظمة كأنما نبتت له - على حين فجأة - أغصان وأعداد هائلة من الأوراق تغطى جسمه ثم تحدث هذه المرة كمن يقول سرا :

واعلم أننى أستطيع أن أجفف الضحكة على شفاههم لو أعلنت الحقيقة: « إن الكوليرا لاتزال بين جدرانكم !» هذا ما أستطيع أن أعلنه . لقد رأيت بنفسى مريضا بالكوليرا ليس بعيدا عن هذا المكان . إن الموت لايزال بين جدرانكم . إنه دائما فوق وجوههم . إننى أراه فى كل مكان ! » .

وانطلق ضاحكا وهو يواصل حركاته . وأصبحت يداه الآن تنبسطان كجناحين وعندئذ ارتكز على عقبه ، والتف أسفل جلبابه بكعبيه ودار دورة هائلة .

وقال مخاطبا رفيقه :

- والآن ، كفى .

ولكنهم فى أعلى العمارتين كانوا لايريدون أن يتركوه .

- أعد ! . . أعد ! . . العب بالطبلة . ارقص ! . .

وتظاهر بعدم سماعهم . وقال مخاطبا نفسه « مرض الأيدى القذرة » «هكذا يسمون الكوليرا . . أما هم ، فلا يخشون شيئا ، فأيديهم نظيفة ! » وانحنى ، والتقط تحت ضوء المصابيح كمية من القروش راح يتطلع إليها وهى تبرق فى راحة يده الرمادية .وأمسك بالقرد ، وأجبره على فتح يده ، وكانت

مليئة بالقروش . « إنهما بحق يدان من أيدى الكوليرا ، يداك أنت أيضا ! » وبعد أن دس النقود في جيبه ، راح فى أدب مفرط يطبع قبلة داخل اليد الصغيرة المغضنة ، قبلة دوّى رنينها ، بينما كان مونجا يطلق صيحات حادة.

وفى الشرفة الأولى ، كان زوجان يتعانقان على صوت الموسيقى الآتية من داخل الشقة والتى لايكاد يسمعها من في الشارع . وكان ثمة رجل ضخم أصلع الرأس يحاول فى رخاوة أن يخلص نفسه ، من شقراء حادة الصوت .. كانت تفرغ جيبه لكى تلقى بما فيه من فوق حاجز الشرفة ، ثم بدأت تترنح بعد ذلك وسقطت على ضحيتها .

وقال المروض فى نفسه : « لقد شربوا.. » هم أيضا ينشدون النسيان ... ولكن ما الذى ينقصهم ؟ » ووضع يديه على خاصرتيه ، وتأمل العمارة مرة أخرى ، ثم تأمل على طول الإفريزين ، طابور العربات ذات المقابض اللامعة : « ماذا ينقصهم ؟ .. ايه ، مونجا ، يا فأرتى .. هل تريد أن أقول لك . إنهم يملكون منها أكثر من اللازم ، يملكون منها لدرجة جعلتهم هم المملوكين .. وهذا الوضع يخنقهم !.. أما نحن ، فلن نفعل مثلهم . إننا نلتقط ما فوق الأرض وننصرف .. ما يكفى يكفى ! وحتى إذا ألقوا إلينا بعد ذلك ذهبا ، فإننا سننصرف .

لم يجمع « أوكازيون » في حياته مثل هذا المبلغ .

- ماذا كنت أقول لك ، يا مونجا ؟ هذا المساء ، نحن أعزاء القدر ، وأحباء الحظ . يكفي أن نظهر ، فتغمرنا النقود البيضاء الجميلة ! .. فيما مضى ، هل تتذكر ، يا حبيبى تحت الشمس التى كانت تنفذ من عظم رأسي ، كنت أظل أدقّ حتى أنفجر ، وكنت أنت تظل تقفز حتى لاتعرف الأرض من السماء ، وأظل أنا أقرع طبلتى حتى تتحطم أصابعى وأنت تدور

حتى تنخلع رأسك دون أن تحاول رمة من الرمم القادمة أن تلقى إلينا بصدقة .. هناك أمسيات ، يا مونجا ، أمسيات كهذه الأمسية - لقد كنت أقول لك هذا عندما كنا نتقاسم فرعا من الكرفس وبطوننا خاوية - هناك أمسيات يكون فيها الحظ شيخا حنونا جدا بحيث تستطيع أن تجلس على ركبتيه وتعبث بلحيته. أمسيات ، نستطيع فيها أن نشير إلى قطعة من السماء لكى تنزل وتأخذنا على سطحها . . ولكن لاتخش شيئا « يا مونجا » ياسكّرتى ، إنني أدع السماء مكانها . أما أنا فأظل هنا معك . باختصار ، إن هذه المدينة تروقنى أكثر من أى فردوس آخر ! .

كانت بعض النقود قد تدحرجت تحت السيارات ، فتسلل القرد بين العجلات لكى يستخرجها . ولكنه خرج من تحتها يغطيه الشحم .

- هيا بنا .

قالها « أوكاريون » عندما لم يعد هناك شيء على الأرض ، ووضع إحدى ركبتيه على الأرض وأشار إلى مونجا بالقفز على كتفه .

ثم انتصب واقفا ، وابتعد مرفوع الهامة ، معتدل الخطوة ، وكأنه يسير في موكب . ومن خلفهما ، كان ظلاهما يمتدان فى ذيل طويل أسود . . .

وفى اللحظة التى كانا ييممان فيها شطر الحدائق ، سمع المروض رنين نقود .قطعة ، قطعتان ، ثلاث قطع ، خمس قطع من النقود كانت قد سقطت على الأرض .

فتردد وتمهل فى مشيته . هل يعود أعقابه ؟

ثم قال وقد رفع وجهه إلى قرده : « نحن أحرار ، يا « مونجا » لقد قلنا : « سننصرف » ولسوف ننصرف .. » .

فإذا بشخص يناديه :

- إيه ، يا بن العبيطة ، تترك وراءك كل هذه النقود !

وسمع صدى ثلاث قطع أخرى .

وفي هذه المرة ، هز « أوكازيون » كـتفيـه ، وحتى دون أن يكلف نفـسه مشقة الإجابة واصل طريقه .

كـان الأصـيل يهـبط على « أم حـسن » التى لم تكن قـد تركت

الفصل الثانى

حجرة الغسيل طول النهار . وفى تلك اللحظة كان مصباح الغاز الضعيف الموضوع فوق الأرض تحت الصنبور تماما ، يملأ الحجرة بالظلال .

كان الليل متحجرا حول الطفل النائم . ليل لايطاق أكثر من سابقه. واشتاقت المرأة للمجهود الذى كانت تبذله في دفع العربة . فبين هذه الجدران المطلية بالجير التى كانت تذكرها بطلاء المقابر ، كانت وحيدة ، وحيدة بطريقة قاسية .

فنهضت ولبثت واقفة طويلا ، وذراعاها متشابكان ، ثم حاولت أن تشغل نفسها فدفعت مفتاح المصباح عدة مرات . فإذا بضوء ساخن يغمر الجدران والسقف ، وتطلعت حولها كأنها خارجة من قاع بئر .

ولكنها عندما لاحظت أن الضوء يضايق الطفل - فقد كان يئن وقد تقلص وجهه ورمشت عيناه وراح يتلفت يمنة ويسرة - بادرت على الفور ، بإدارة المفتاح ، لكي تخفف من حدة الأشعة ، وتغرق الحجرة شيئا فشيئا في شبه الظلام.

كانت قبل لحظات لاتجرؤ أن تسـقى «حسنًا ». فلم يعد يستطيع أن يحتفظ بجرعة واحدة فى فمـه، وبمجرد الاقتراب من الغسيل المبتل ، كان جسده كله يرتعد ،. مع ذلك فقـد كان يشعر بالعطش ، وكانت شفتـاه مكتسيـتين بطبقـة صمغـية . وعادت العجـوز فجـلست إلى جواره ، بعـد أن ألقت نظرة حرونا على الصنبور ، الذى كـان بريقه أشد منه فى النهار ، وكان يبدو وكأنه يسخر منه .

إنه يشبه سعيدا .

هكذا كانت تحـدث نفسـها وهى تتطلع إلى وجه الـطفل . الجبين نفسه الذى تحفـــره الخـطوط الرفيعة ، الخطوط العميقـة نفسها على جانبى الفم . كان الجلد يبدو عـريضا في كل مكان ، وحاولت المرأة بأطراف أصابعـها ، أن تخفى كل تلك الخطوط « كـأنه برقوقة جـافة زرقاء » . كانت العينان فقط - فى ومـضات بارقة - تمارسان الحياة ، مصدرتين نظرة حادة محزنة ، وإذا به يقول :

- سأموت .

- لاتقل هذا .

فاستطرد قائلا :

- سأموت . . .

- ليس هذا صحيحاً .

فاستطرد قائلا بصوت متكسر :

- لقد مات معلّمى ، وأنا سأموت .

- معلمك لم يكن معه من يسهر عليه . .أما أنت،فإننى معك . . .

- سأموت مثل معلمى .

وتصورت أنه لم يعد يسمعها . ومع ذلك فقد قالت فى إصرار:

- لا الناس ولا الموت سيأخذونك منى .

فقال «حسن» في عناد :

- سأموت . . هذه هى الحقيقة .

- ليست هذه الحقيقة .

كان لابد من تخليصه من هذا الاستسلام . ومالت حتى مست شفتيه النديتين ، فتلقت فى منخريها نفس الطفل النتن . فهمست له دون أن تتراجع :

- أنت حياتى . استمع لي جيدا :

- أنت حياتى .

- كأن أجراسا تدق فى أذنى ، مئات من الدبابير فى أذنى . . أنا أعرف أننى سأموت . فقالت المرأة :

- كلا ، كلا .

ورفعت ذراعيها وشبكتهما في عنف عدة مرات أمامها ، كأنها تشير إلى شخص ما على شاطئ آخر ونهر عريض يفصل بينهما ويحول دون وصول صوتها .

وقالت فى ورقة :

- كلا ، كلا . . .

وصمت الطفل ، وبدا كأنه راح فى نوم عميق . وكانت العجوز تميل عليه وتتفحص ملامحه . هذا الوجه الذى كان مستديرا ممتلئا كالفاكهة الطازجة ، كيف أصبح ، بهذه السرعة هذا الشئ المغضن ؟ « ليس هو ، ليس هو . . هذا ليس صحيحا » بالنسبة لها هى

أو « سعيد » ، فقد كان لابد لهمـا من حياة كاملة حتى تصبح البشرة قبيحـة إلى هـذا الحد. وعلى حين فجأة تصورت نصـفها العلوى إذ كانت فـتـاة ،وثدييـهـا اليابسين وكأنهـما مـشـدودان من الـداخل، وبطنـها، وردفيها الشبيهين بفخار الجرار عند خروجه بين يدى الصانع ناعمة كـالحرير . واستعادت صورتهـا التى أصبحت عليها ، بثـدييها الشبـيهين بقربتين على وشك أن تُفـجّرا جلدهما الضـعيف، وحلمتيـها المســودتين ، وفخـذيهـا اللتين تتـخللهـما أوردة هزيـلة، وسمـانتـيهـا المتخثرتين.« إن الكهــولـة أرض حُرثـت عـدة مرات ، وهذا عدل ، يا إلهى . . أما الطفل ! . . » وفـى بطء ، رفعت جلباب «حسن» ، وكشفت عن بطنه ،كانت مسطحـة فى شكل القارب، وبشرتها هزيلة تتدلى حولها. وحدّثت نفسها وهى تعيد تغطيتها: « بطن الأموات» .

كان الصنبور يقرقر فى إلحـاح . فاقتربت منه « أم حسن » وبللت قطعة قماش ثم حاولت مـرة أخرى أن تسقى الطفل .ولكنه ، بمجرد أن رأى قطعة القمـاش المبللة، تقيأ من جديد . وكان مـا أخرجه من فمـه مليئـا بمادة مخـاطية . وامتـلأت الحجـرة برائحة مـاء مالح ، واستـعادت المرأة صورة كـوخ الغاب ، وأبناء أخـتها وهم يعـالجون الميّتـة . وحزمة البصل التى كـانت تتدلى من السقف ، والطفلة شـبه المجنونة التى كانت تقضم أظافرها . .

– لاشىء ، ياصغيرى ، لاشىء . .

همهمت بها وكأن شفتيها لم تعودا شفتيها .

* * *

كـانت أشعـة القمـر تتسلل من الكوة وتسـقـط علـى الصنبـور فتجعله يتوهج .

فتقدمت « صديقة » عدة خطوات وبصقت على المعدن اللامع.

كان الطفل ثابتا لايتحرك . أتراه أعرض عن الحياة ؟ وهى ، أتراها أعرضت من أجله؟ كان اليأس يرصدها من كل مكان ، قابعا فى كل ركن من أركان الحجرة .إن له جسدا مشعرا ، وأرجل عنكبوت . و على حين فجأة سينقض ويلفه فى شركه .

وبغتة وقفت المرأة . حتى ثيابها كانت ثقلاً عليها ، فأتت حركة بكتفيها كأنها تبعدها . وها هى ذى تدير المفتاح وتفتح الباب وتخرج إلى السطح .

كانت الريح الخفيفة تنفخ ثيابها فتقلل من ثقلها . وتسللت نسمة داخل كميها الطويلين ، وداعبت ذراعيها ، ودخلت من تحت وشاحها إلى صدغيها ، ووصلت تحت شعرها .

ومن حولها الليل . الليل مرة أخرى . ها قد كتب الليل عليها وعلى الطفل . . أوه ! أنت يا من يبدد الأحزان . . من الذى تخاطبه بهذه الطريقة ؟ أهناك شخص يسمع لها ! . . لاتستطيع أن تخرج إلا ليلا ، عندما لاتكون هناك سوى الحجارة تتحدث إليها ، عندما تصبح السماء ، شبيهة بلوح ترصّعه مسامير صفراء . واستندت العجوز إلى الحاجز : مدينة شاسعة ولا أحد يسمعنى ! لو أن شخصا فقط يصعد . أى شخص ، وليتنى أرى وجها . . سعيداً أو الطالب ، أو حتى زكية الجارة ، أو حتى السيدة نائلة التى تغط فى نومها أسفل ، راقدة بشعرها الأحمر ، وقرطها الزجاجى الأسود حول عنقها « لو صِحت بصوت مرتفع . . لو ناديت أمهات هذه

المدينة . فإنهن سيقبلن نحوى . . ها أنا أصبحت مجنونة ! . . سينتهى بى الأمر إلى المستشفى » .

وغادرت السسطح ، وعادت إلى حجرتها من جديد .

* * *

كانت تجلس القرفصاء ، وظهرها إلى الجدار ، وتضع يديها مسطحتين فوق بطن الطفل . . هدوء جاء من أعماق القرون يستقر فى بطء ويسرى فى عروقه .

« فى اليوم السادس ، سيبعث « حسن» إلى الحياة . إن الذى يرقد هنا ليس سوى صورة ، صورة لطفل الغد . إن اليوم لايعدو شيئا ، مادام الغد يقترب . بعد أربعة أيام من الآن ، لن يتقيأ الطفل، وسيطلب أن يشرب وسيشرب . وسيدق نبضه قويا ، وستتدفق أوردته بالدماء ، وستعود الحرارة إلى بشرته . وسيستعيد رائحته ، رائحة الطفل .

وأخذت العجوز تترنم ، مغنية بالطريقة التى يحبها «حسن» :

كم طائرا فى السماء ؟
واحد للرضيع .
وواحد للزواج .
وواحد للحصاد .
وواحد للطفل العاقل .
كم شجرة على الأرض ؟
واحدة للشفاء .
وواحدة للكبر .
وواحدة لحياة كل ولد .
وواحدة للسفر .

الفصل الثالث

كان الطفل متدثرًا حتي ذقنه في أغطيـة من قماش ذى مربعات ، وكان يتنفس بصوت مرتفع . وكانت العـجوز قد اعتادت هذا التنفس منذ الليلة السابقة ، فرأت أنها تستطيع أن تبتعد دون خطر بالغ ، لكي تنتظر الطالب في الزقاق ، لقد كانت تخشى زيارته أكثر من أى شيء آخر . لأن الحجـرة كانت عارية من الأثاث ، فمـاذا تصنع لو صعد لتخفى عنه الطفل ؟

وحان وقت الـظهر ، وكان الهـدوء يسود السطـح . وكان هذا السطح لا يضم سوى سـبع حجرات للغـسيل ، منفصلة بعضـها عن البعض الآخر ، ولم تكن تستخدم إلا فى نهاية الأسبـوع . وفتحت أحدًا أم حسن الباب ونزلت متلصصة،ولم تقابل أحدًا على السلم ، فـغادرت العـمـارة . كانت الشـمس مسلطة على الزقـاق ، ولـكن التلاميـذ كانـوا يلهون بالجـرى حاملين حقائبهم على ظهورهم دون أن تضايقـهم فى شيء . كان بينهم « أرتيم » ، الابن الأكبر للـخياط الأرمنى ، فتعرف العجوز التى تقف على درجـات السلم ، واقتـرب منها لكى يسـألها عن مكـان « حسن » وعمـا إذا كان يريد أن ينضم إليـهـم ولما لم تجـد لديهـا مـاتجـيب به ، نقَّـبت فى جـيـبـهـا الطـويل. فـاكتشـفت حبـات من التـمـر قدمـتـها إليـه فـأخـذها وولـى مسرعًا.

وبينما كانت « أم حسن » تتجـه ناحية موقف العربات ، تلقت فى ثيابها كرة تنس مائلة إلى البياض وخالية من الوبر .

وإذا بصوت طفل يصيح قائلا :

- ألق بها !

- نعم ، ألق بها . . بشدة !

وبينمـا كانت « أم حـسن » تمسك بالكرة فى تجـويف يدها ، لم تستطع أن تمنع نفسها من التـفكير فى أصابع « حسن » التى بلغت من الضعف حدا لاتستطيع معه أن تطبق على أى شىء .

وإذا بالأصوات تطالب قائلة :

- هيا ، هيا . .

فرفعت رأسها ، وتطلعت عاليا ناحية السطح . .لو ألقيت بالكرة بكل ما أوتيت من قوة ، فـربما وصلت إلى الكوة ، وربما رآها حسن . . وقالت لنفـسها أيضـا إن رؤية هذه الكرة قد تثيـر لدى الطفل ذكريات سعيدة . . وتخيلت بسمته .

- هيا ، يا أم حسن !

وركـزت العـجـوز أفكارها ، ورجـعت بذراعـهـا إلى الخلف ، وطوحت بها مرة واحدة فى اتجاه عمودى وقد تنكس نصفها العلوى .

فوقفت الكرة فى منتصف الطريق ، وسقطـت كالحجر بين يدى « أرتيم » المنبسطتين .

* * *

كانت توجد عربات أخرى إلى جوار عـربتها ، وكان هناك جحش مسرج إلى إحدى هذه العربات يحمل قلادة زرقاء مزينة بورود صوفية حمراء . وحول عينيه الواسعتين المحاطتين بهالتين سوداوين رطبتين ،

كان الذباب يتـجمع . ولقد بدا صـبر الحيـوان بلا حدود ولكنه في بعض الأحـيان كـان يقع فـريسة هيـاج مـفـاجئ ، فكان يهز رأسـه ويضـرب الأرض بحـوافره ، قـبل أن يعـود إلـى بلادته الشـديدة ، وتلكـأت أم حـسن بالقـرب منه ، تداعبـه بين أذنيـه ، وتحك له قفـاه ، وتصرف عنه الذباب .

وراحت بعد ذلك تتحسس جانبى العربة وعجلاتها لكى تتثبت من صلابتـها ، فربما احتـاجت إليها بعد قـليل. ولم تلمح إلا بعد لحظة طفلة صغيرة كانت تجلس تحت سطح عربتها تمتص قطعة من الشمام . ولما سـمعت الطفلة ضـوضاء ، مـدت يدها فى حـركة آليـة تطلب الصـدقة . ولما لـم يقع شىء فى يدها ، سـحبـتـها ، وعـادت إلى امتصاص فاكهتها في هدوء . فقالت لها المرأة :

- لم يعد فيها شىء تأكلينه.

فقهـقهت الطفلة ضاحكة . وكانت ترتدى جلبابا رمـاديًا قذرا يتدلى حتى عقبيها .

- ألا تزالين جائعة ؟

- أنا دائما جائعة .

وخرجت من تحت العـربة على أربع . ولمحت العجـوز أسنانها السليمة اللامعة ، وشفتيها الممتلئتين ، وبشرتها الملساء .

- من يعتنى بك ؟

- لاأحد . . إننا أربعة عشر شخصا فى المنزل .

- تعالى . . فلدى بعض الوقت من أجلك .

قالتها « صديقة » بعد أن تأكدت أن الطالب لم يحضر بعد .

وأمسكت الطفلة من يدها وصـحبتها إلى حانوت البـقالة . . كان البقال ناعسا خلف مكتبه وسترته الحريرية معلقة بأحد المسامير . وكان

صبيّه ينظف الأرض فى رخاوة ، دافعا بالقشور والمخلفات إلى الشارع . وفى أقصى الحانوت ، كان هناك قدر ضخم من الفول ينضج فوق لهب ضعيف .

- أعطنا فولا فى رغيف وبصلا جافا .

- آه ! ها أنت في الحى مرة أخرى .

قالها البقال وجفناه لايكادان يرتفعان .

- سأخبر زوجتى لكي تعطيك غسيلا .

لم تكن « أم حسن » تغفل عن الزقاق بعينيها .

وعندما قدم لها الصبى ما طلبته قالت للطفلة :

- خذى !

- وأنت ، ألا تأكلين ؟

ودفعت الثمن . وقالت :

- لست بحاجة إلى شيء.

فأخذت الطفلة الرغيف وأرجحته عدة مرات في يدها، وشمته ولصقته بخدها لكى تشعر بسخونته الرائعة . وشعرت أم حسن بأن الطفلة تنهار . كان خداها يأكلانها من الداخل ، وكان وجهها يذوب ، وبشرتها ترتخى حول عنقها . وأسنانها تصفر .

وأطلقت صرخة وخرجت بسرعة من الحانوت .

وفى منتصف الزقاق كان التلاميذ يشكلون حلقة ، كانت وجوههم زرقاء ، متقلصة وكانت ثيابهم تهفهف على هياكلهم . فحاصروا المرأة وأخذوا يرقصون حولها وهم يغنون فدارت « صديقة » فى مكانها محاولة أن تتخلص منهم . وفجأة قطعت سلسلة أذرعهم وأسرعت إلى العمارة .

ولحقت الطفلة بأم حسن وأمسكتها من أسفل ثوبها .

- لماذا تذهبين ؟

- انصرفى ! لاتلمسينى .

فتراجعت الطفلة مذعورة .

* * *

وعلى حين فجأة نادى الطالب قائلا :

- أم حسن . لاتنصرفى . . كنت سأصعد إليك .

فالتفتت العجوز ونظرت إليه دون أن تنبس بكلمة .

- ماذا بك ؟ هل أنت مريضة ؟

- إن هؤلاء الأطفال لايتركوننى فى هدوء . . كنت ذاهبة لانتظارك بالداخل ، فوق المقعد .

ثم طوحت بذراعيها مهددة التلاميذ :

- إذا ضايقوك . فسيكون لهم شأن معى .

- جئت لكى أقول لك إنك ستجد المفتاح بعد غد تحت المدوسة.

- هل ستعودين فيما بعد ؟

- نعم ، فيما بعد ، سأعود .

ومد لها يده ، فتظاهرت بأنها لم ترها ، فقبل قليل كان الموت فى كل مكان . لم تعد تريد أن تلمس أحدا .

فانصــرف الطالب . وجلست أم حسن فوق درجـات السلم تنتظر لحظة . وسمع صوت جرس .

فاختفى الأطفال مرة واحدة . ولم يعد هناك سوى المرأة فى الزقاق المهجور .

الفصل الرابع

ونهضت صديقة . وبينما كانت تتهيأ لصعود الطوابق الستة سمعت من يناديها - إيه ! أم حسن . عطر الله نهارك !

لم تكن نبرة الصوت غـريبة عليها . فنزلت درجة وبحـثت حولها دون أن ترى أحـدا . ثم لمحت ، عند زاوية العمـارة الأخيـرة عصـا ضخمة مدهونة باللون الأبيض ومزينة بطولها بالأعلام . كانت العصا تمس الأرض ثم تصعد مشكلة دوائر .

فصاحت أم حسن قائلة :

- من ينادينى ؟

واتبعـت العصا بـخفين قرمـزيين . فنزلت العـجوز درجـة أخرى ومـالت إلى الأمام لتـحسن الرؤيـة . وأخيـرا ، ظهر الرجل مـرتديا جلبابا حريـريا يغطيه وشاح كبيـر مزركش ، وكان يحمل على كـتفه قردا فى ثياب صارخة .

- انظرى ، نحن هنا !

قالها الرجل على مراحل ، كأنه يدخل على خشبة المسرح .

- أوكازيون !

صاحت بها العجوز التى كانت تعرفه منذ عهد بعيد .

- ماذا تصنعين فى هذه الناحية ، يا امرأة ؟
- أبحث عن عمل .
- عمل ؟ . . .

وهز المروض كتفيه ووضع عصاه على الأرض وأخرج من تحت حزامه صفارة جديدة . وعندئذ شرع يستعرض ألعابه فى الزقاق الخالى وهو ينفخ فى آلته . كان وشاحه يهفهف وراءه ، وينتفخ كالخيمة ، بينما كان القرد واقفا وذراعه حول رأس سيده . وراح يعرض تنورته الحريرية الوردية . كان كلاهما يرتدى فوق رأسه طاقية بها نقط صفراء .

وخشية أن يتجمع الناس ، أشارت إليه « صديقة » عدة مرات بأن يوقف عزف موسيقاه :

- هذا الحى لا يناسبك . . لن تجمع شيئا هنا .

فتوقف ، وتدثر تماما فى وشاحه اللامع ذى الأرضية الزرقاء الذى ترقمه نقط حمراء :

- تأملينا ، أيتها المرأة ، وأخبرينا إذا كنا جميلين .

وأجابت محاولة التقصير :

- جميلان جدا .

- لقد صحبت قردى إلى الحلاق ، انظرى ، إن شعره الآن محلوق كالعشب . وبعد ذلك ، قمنا باختيار ملابسنا . . . كان الباعة يتهافتون علينا وينحنون أمامنا وكأننا من أصحاب الدخول .

فتراجعت المرأة متعجلة الانصراف .

- كيف لا تسألينى عن مصدر كل هذا المال ؟

- هذا أمر يخصك .
- ولكن أين تذهبين ؟ لم كل هذه العجلة ؟
- لدى عمل .
- عمل ؟ فى هذه الساعـة ؟ . . ليس هنـــاك عمل لا يتوقف ، يا أم حـسن ! إن من يقول عكـس ذلك إنما هو كاذب ، وفـوق ذلك فهو يناقض قوانين الإله .

كان ينتظر إجابة لم تقدم :

- أنت متعـجلة للغاية وقليلة الفضول . وليس هذا عـاديا بالنسبة لامرأة . . وامرأة عجوز بالذات .

فألحت قائلة :

- دعنى .

فاقترب . وعندمـا أصبح بجوارها ، ثنى ركبتيـه قليلا ونظر إليها من أسفل .

- إذا كنـت لا تـريـديـن أن تـأتى مـعى ، فـسآتى أنـا معـك ، يا خالتى .
- طيب ، سأبقى لحظة .
- ها قد اتفقنا ! والآن وجّهى إلىّ أسئلة .
- أية أسئلة ؟
- أنت تعرفـين جيدا . . اسـألينى كيف حـصلت على كل هـذا المـال .

كان المروض يتحرق لرواية كل شىء .

فسألته بلا اقتناع :

– كيف حصلت على هذا المال ؟

فأمسكها من مرفقها ، وبدأ يسرد قصته التى ختمها قائلا :

– الكوليرا ، إنها منجم ذهب . لو كنت أعلم . . وعرض عليها فى الحال عملا مشتركا :

– أنت تتجولين كثيرا ، وتستطيعين أن تحددى لى أسماء الذين يخفون مرضاهم .

ثم أضاف متنهدا :

إذا كان لا يزال يوجد منهم أحد ! وكما ترين ، فإنها فرصة عظيمة تلك التى سمحت لى بمقابلتك . ولما كانت لا تقول شيئا فقد واصل حديثه قائلا :

– أما اليوم ، فقد وجدت شيئا آخر . لقد علمت أن هناك حفل زواج عظيم فى المدينة . إن حافظات النقود تتمطى عن طيب خاطر فى هذه المناسبات !

فأجابت فى جفاف :

– أنا لا أستجدى .

– من حدثك عن الاستجداء ، أيتها المرأة ؟ أنا أيضا لا أستجدى . إننى أقدم عرضا ، أما أنت، فتقومين بجمع نصيبنا . . هذا كل ما فى الأمر .

– ليس لدى وقت . إننى أبحث عن عمل .

– وأنا أبحث عن مصلحتك . هيا . لم العناد ؟ ساعة واحدة . لا أكثر يجب أن يتطلع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ، وإلاّ انتهى كما تنتهى القوقعة ، وبطنها ملتصق بالأرض .

وتناول يدها وسحبها . فاستسلمت خشية أن تثير شكوكه . ففى المدينة ستنتهز فرصة الزحام لتهرب .

- اذهب ، إننى أتبعك .

فترك يدها فى الحال ، وسار أمامها فى خطى متمهلة .

ومن حين لآخر كان يصيح بها قائلا :

- أم حسن ، إنك سيدة السيدات . بشرفى ، إنك تفضلين كل هؤلاء اللائى سنراهن يتتابعن أمامنا .

وعلى مسافة خمسمائة متر من الزقاق ، لمح تِرامًا تخرج منه كتلة بشرية ضخمة ، فدفع فيها العجوز .

وهمس لها وهو يتسلق خلفها على سلم الترام :

- لقد تأخرنا .

وانسلت أم حسن بين الجمهور يتبعها المروض . ولمحتها سيدتان محجبتان فأفسحتا لها مكانا فوق المقعد لتجلس بينهما ، بينما كان « أوكازيون » وهو واقف يمسك مقبضة كانت تتدلى من السقف . وبصعوبة بالغة تمكن المحصل بكتفيه ومرفقيه أن يشق لنفسه طريقا . . كان يختنق فى زيه الكاكى ذى الأكمام المزررة ، والياقة المنفرجة . وكان طربوشه الأحمر الواسع بالنسبة لرأسه يستند على أذنيه ويضيف عليه هيئة مزرية يزيد من حدتها شاربه المتدلى ذو الشعر الكثيف الجاف الذى يشبه القش . وتوقف أمام النساء الجالسات ، وجعل يطالع تذاكره وكان العرق يتصبب على خديه .

وأعلن المروض قائلا :

- بالنسبة لذات الوجه السافر ، أنا الذى سأدفع !

خلية نمل حقيقية كانت متلاصقة فوق السلم ، تتعلق بالسقف والأبواب والحواجز الحديدية .

وسط خليط من الضوضاء المتنافرة من الزجاج والحديد ، كان الترام يهتز متجها إلى قلب المدينة . كانت الطرق تتحول إلى شوارع واسعة ، وكانت الأفاريز تتسع والعمارات الشاهقة الضخمة تَخلف المبانى القديمة ، وواجهات المتاجر الهائلة تخلف الدكاكين الصغيرة . وبدت السماء أكثر اتساعا . وكانت الشجيرات تتكاثر مع أنها ظلت تشبه الناقهين . وفى بعض الأجزاء كانت قشورها تنتفخ ، وتنفجر ، كأنها تعانى من وطأة جفاف طويل الأمد .

كان وجه الطفل يسيطر على العجوز . ثم تبدد فجأة ، كأنه من زجاج ، واستحال فتاتا ، ولم يبق منه سوى الشفتين . شفتان جافتان ، رماديتان ، مخرمتان . وقربت المرأة فمها محاولة أن تلصقه بفم حفيدها لكى يتقاسم نداوته ونضارته .

وإذا بوقوف الترام يخرجها فجأة من أحلامها . وقال المروض :

- هنا . يا خالتى ، انزلى .

ومراعاة لسنها ، أفسح الناس لها الطريق ، وعاونها المحصل فى النزول وهو يوجهها ناحية « أوكازيون » .

وقال لها أوكازيون وهو يضع لها القرد بين ذراعيها :

- امسكى ، إننى أعهد إليك بمونجا . . .

ثم سار إلى الأمام تاركا السلسلة تنبسط بينهما .

كان « أوكازيون » يعرف هذه المدينة وكأنه هو الذى أنشأها . وكان يعرف أيضا أسماء الشوارع والمتاجر بل حتى أسماء أصحاب

العمارات. وكـان من النادر أن يوجد وجه مجهول بالنسـبة له تماما . كان يسـحب العجوز وراءه ، وكان طـــرف السلسلة الطـــويلة يمتد من قلادة القرد حـتى حزام المروض وعلى هذا الوضع راح يضرب فى كل مكان .

وألقى التـحـيـة إلى « فـتـال » ، ذلك الـقـزم الذى يبـيع أوراق اليانصـيب . ثم ألقى التحيـة إلى بائع الزهور المتجول الذى كـان يهز باقـات ضخـمة من الورد يقطر مـنها المـاء تحت أنوف المـارة . وبعـد مسـافة ، لمح « نبيـلا » صبى الحلاق وهو يعـبر الطريق حـاملا ثلاثة فناجين من القهـوة فوق صنية ، فابتلع أحدهـا مرة واحدة ، ثم ألقى بآخر قرش معه ليرن فوق الصنية ، وقال :

- أما الباقى ، فـيمكنك أن تحتفظ به لتجعل صـاحب المحل نفسه يحلق لك على حسابى .

وكان بائع المشـابك والدبابيس يضع بضاعـته فى صندوق مفـتوح معلق حول رقبته ، وكان مستندا إلى إحدى المكتبات . فنادى المروض قائلا :

- إيه ! أوكازيون . . ماذا صنعت بالقرد ؟

- إننى أخف من حبة السمسم . إن لدى شخصا مخصوصًا لخدمة « مونجا » . . انظر .

وواصلا السير . وبعـد مسافة ، وجد سلالا ضخـمة من الخيزران مليئة بالليـمون الحلو والبرتقال ، واليوسفى والتـفاح اللبنانى . وكان هناك غلام صغيـر يلمعها فينفخ فـيها ويجففها بقطـعة من القماش .

وكان صاحب المتجر يجلس شابكا يديه فوق بطنه ، يتطلع إلى الغلام بعين راضية .

فصاح أوكازيون قائلا :

- من يدفع ثمن تفاحة ؟

فقال الرجل دون أن يفك يديه :

- أعطه تفاحة .

- كلا ، أنا الذى سيختارها .

والتقط المروض من فوق السلة . تفاحة حمراء ناعمة الملمس . وقال وهو يقدمها « لصديقة » .

- خذى فهى لك ، إنها ستلوّن وجهك .

فأخذتها دون أن تنبس بكلمة .

- كليها . . .

كانت الرائحة وحدها تثير اشمئزازها ثم أضافت قائلة :

- أسنانى .

- إذن ، رديها إلىّ . . .

ومد راحتيه ليلتقطها ، ثم قضمها بملء أسنانه . فسالت عصارتها حول ذقنه . وإذا به يصيح مهللا :

- رائعة ، فاكهة الجنة !

وعلى بعد خطوات ، أمام محل حلويات « حلوانى القوقو » لمح الشحاذ الأحدب ، وجلبابه لا تزال مرفوعة إلى ما فوق فخذه ليظهر ساقه الكسيحة . فدس له التفاحة فى يده ، وابتعد دون أن ينتظر منه شكرا .

كانت السيارات العريضة تبهر الشارع ببهائها . وبينما كان المروض يجتاز الشارع ، ضرب بصفارته ضربات خفيفة فوق إحدى هذه السيارات .

- إنك لا تخيفني بضجيجك !

كان الرجل الجالس إلى عجلة القيادة يلبس نظارة يحيط الصدف بعدستيها وتجلس إلى جواره سيدة شابة شقراء خارجة لتوها من عند الحلاق . فإذا بالرجل ينزل زجاج العربة وينهال على المروض بالشتائم . فراح الآخر يرد عليه بألفاظ بذيئة . ثم التفت إلى أم حسن ونُصحها بالإسراع إذا كانت لا ترغب أن تختم نهارها بصحبته فى قسم الشرطة .

وصاح به بواب المصرف عندما لمح الموكب الغريب قائلا :

- لم هذه العجلة ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟

فأجاب المروض :

- إلى أشغالنا .

وانعطفا إلى اليمين :

فقالت « صديقة » وهى منهكة القوى وقد لمحت بناية ضخمة يعلوها صليب .

- ها هى الكنيسة .

الفصل الخامس

كانت كنيسة الفرنسيسكان محاطة بجدار صغير تعلوه قضبان حديدية ، وكانت سوداء تبرز من فوق جمهور مختلف الألوان .

كان « أوكازيون » لا يعرف المستحيل ، فشق لنفسه طريقا حتى رواق الكنيسة . وهمس لصاحبته قائلا :

- أحسن مكان ، وإلا فلا !

وجعلا يتقدمان ، متجاورين ، بينما راح « مونجا » فى هوس يحرك ساقيه بين ذراعى « أم حسن » . ثم نزع طاقيته وألقى بها فى الهواء ، وأخذ يطلق الصيحات ويطوح بثيابه .

فقال المروض متهكما :

- لعلك تظن نفسك العروس !

كان الناس يفسحون الطريق أمام الثلاثى الغريب . واختطف القرد وشاحا ، وهجم على قبعة زاهية الألوان . وفى حركة عنيفة ، انتزع « أوكازيون » القرد من بين ذراعى العجوز وضغط على رأسه تحت إبطه ، مهددا إياه بحبسه داخل خرجه ، إذا لم يهدأ فى الحال . فتظاهر « مونجا » بالموت حتى أطلق سيده سراحه .

وقال هذا موبخًا :

- لا أريد أن أسمعك . عندما يحين دورك فى العرض سأخبرك . أما الآن فإن الملهاة فى مكان آخر ، فلا يجب أن تفسد على لذتى . . . .

ثم طبع قبلة على رأس القرد وحمله على كتفه . فلزم الحيوان الصمت وتكور عند قفا المروض .

لم تعد « صديقة » مقيدة بالسلسلة ، ومع ذلك فقد كانت تشعر بأنها سجينة ، محاصرة بهذه الجماهير . كانت تخشى المروض ، وتخشاهم جميعا .

كان « أوكازيون » فى قمة الانفعال . وكان وجهه مشدودا ، وقطرات من العرق اللامع فوق جبينه ، وعلى هذه الحال كان يلتهم المشهد بعينيه . ثم بدأت تسمع أصوات الأرغن الكبيرة .

وقال وهو يدفع المرأة بمرفقه فجأة :

- انظرى .

كانت العروس تتقدم فى سحابة من الدنتيلا البيضاء على طول البساط الأحمر . ورجل مسن مدبب الأنف ، ضخم الجثة ، يمسك بذراعها .

كان يتطلع إلى الحاضرين فى غضب ، ومن آن لآخر ، يأتى بيده المزينة بالخواتم حركة تنم عن التحكم والسيطرة ليبعد الناس عن طريقه .

فقال المروض وهو يضحك عاليا :

- زواج من الدرجة الأولى ! . . ماذا يمثلون ؟ وما هى النهاية ؟ . . جنازة من الدرجة الأولى ! وسد أنفه وهو يقول « إن

رائحة النتن تفوح مقدما . . بعد خمسين عاما من الآن سنكون جميعا قد عدنا إلى أحشاء أمنا ، الطين . إلى أى طبقة تنتمى أمنا الأرض ؟ هيه ، أتعرفين أنت يا أم حسن ؟ » .

وعندما مرت العروس من أمامها ، توقفت . وأومأت بإشارة بطيئة من رأسها إلى العجوز التى عرفتها وابتسمت لها . وكذلك عرفت « صديقة » الفتاة قبل ثلاثة أيام . ولكن « دانا » كانت قد ابتعدت ، وسرعان ما اختفى ذيلها الطويل خلفها داخل الكنيسة .

وحدثت المرأة نفسها قائلة :

- ياله من وجه حزين !

وظلت الأبواب مغلقة أكثر من ساعة . وحاولت « صديقة » مرة أخرى أن تهرب من المروض ولكنها كانت بمجرد أن تأتى أية حركة ، كانت يده تنقض على كتفها . فقد كان يبدو أنه يتمتع بقوى خارقة . وكانت تحاول أن تمحو من نظرتها كل قلق ، وكل تفكير ، وأن تقدم للرجل وجها أملس ناعما . هذه الحركة ، لن تأتيها . فسوف تصبر ثانية لأنها ستجد الوسيلة للهرب .

وتدفقت الجماهير إلى الداخل . وإذا ببعض الأطفال يحاصرون « أم حسن » وكان المروض يصفق للقرد ، بعد أن صفح عنه ، وكان القرد يدور حول العصا . وتكدس بعض الأطفال الآخرين حول متجر أخضر . فقد كان بائع السجاير يشارك فى الفرجة العامة ، فرفع غطاء بطرمان كبير وراح بأطراف أصابعه الصفراء يوزع الحلوى على الأولاد .

وما أن انتهت المراسم ، وفتحت الأبواب ، حتى خلت الحارات

المجـاورة وتدفق الناس من جـديـد إلى الفناء . إلا أن « صـديقـة » والمروض ظلا وحدهما على حافة الإفريز ، أمام العربة البيضاء .

- والآن هذا هو المكان الجميل .

قالها وهو يغمز بعينيـه للسائق « يجب أن نقبض على الفرصة من جناحها » .

وفعلا ، فبعد عدة لحظات ، عاد العروسان إلى السيارة بينما أبقى السائق « تامان » الباب مفتوحا .

كـانت « دانا » لا تكترث بمـا يدور حولهـا ، كـانت تعلق نظرها بالزجاج ، فإذا بوجه العجوز يظهر أمامها .

وهمس « أوكازيون » قائلا :

- هل رأيت الزوج ، حتى « مونجا » لا يريد أن يراه . هل يمكن أن يتفاهم الناس من خلال الزجاج ؟ لم تعد أم حسن تريد أن تصرف نظرها عن هذا الوجه وكـانت « دانا » تنظر إليها أيضا . فـفى أعماق كل منهما برغم المسافة الشاسعة ، كان هناك وجه شبه ما يجمعهما .

وقال الزوج للسائق :

- ماذا تنتظر ؟

فأطلق « تامان » زمارة وهدد الجماهير التى تحيط بالسيارة وسبها . ودفع « أوكازيون » بالعجوز لتأخذ مكانها ، ونقر على الزجاج بطرف مزماره ، وعرض قرده وبسط يده .

وقال لصاحبته :

- إن القرود تجلب الحظ .

كانت أنفـاس المروض قد غبرت الزجـاج ، فلم تعد « دانا » ترى

سوى عينى « مونجا » تتراقصان من خلاله .

- ألا زلت تريدين الهرب ؟

صاح بهـا المروض وهو يقبض على « صـديقة » من ذراعهـا بينما كانت تجتاز الشارع الكبير .

- الوقت يمضى . . وأنا متعجلة .

- لم تمض سـوى ساعـة ونحن معـا ، أيتـها العـجوز . هيـا ، صاحبينى ولن تندمى على ذلك . .

« لن تنتهى هذه المسيرة أبدا » كانت ترى نفسها وهى تعبر الساعات والأسـابيع ، والمدينة والبلد ، مـقيـدة دائمـا إلى المروض . إلى أين سيظل يسحبها وراءه على هذا النحو ؟

كـيف أصبـح الطفل ؟ كـانت ترجو أن يصـبـر دون أن ينادى أو يصيح ، كانت واثقة كل الثقة من صـبره . ولكن صبرها هى كان قد بلغ نهايته . لقد كانت فى بعض الأحيان تتمنى موت هذا الرجل .

واستطرد « أوكازيون » قائلا وهو يواصل الطريق :

- إن منظر الناس يستحق ما يكلفنا من عناء .

فسألت أم حسن :

- إلى أين نحن ذاهبون ؟

- إلى الاستقبال ؟

- لمـاذا ؟

- عندى أفكار .

- هل تعرف أين يوجد ؟

- أنا أعرف كل شىء ، يا أم حسن .

ثم استطرد بينما كان « مونجا » يحتك بخده :

- كل ما يجـرى فى هذه المدينة ، أنا أعـرفه . العقـد والمشكلات التى تحاك ، المراهق الذى يتوارى ، الزيجـات التى تزور ويتاجر بها . إننى أعرف حتى أسماء الأحياء والأموات . . إن لى أربع آذان وأربع عيون ، أليس كذلك يا مونجا ؟ ولـكن لى لساناً واحد لا أستعمله إلا عن دراية ومعرفة .

- ولمـاذا نذهب هناك ؟

- إنك عديمة الخيال ، أيتها المرأة !

لم تعد « صديقة » تريد أن تتخيل شيئا ، حتى ولا آلام الطفل .

- ألا تستطيعين أن تثقى بى ؟ . . اتبعينى وسترين .

وفجأة سألها « أوكازيون » قائلا :

- لمـاذا لا يوجد الطفل معك ؟

فأسرعت بالإجابة :

- لقد هرم العجوز كثيـرا ، ولم يعد من الممكن أن نتركه بمفرده . والطفل يبقى إلى جواره .

وبعد أن قطعـا شوطا كـبيرا من الطريق ، وصـلا أمام « الفـيلا » المبنية من الطوب الأحمر .

كانت درجـات السلم الأمامية البـيضاء تعلوها شرفـة تزينها بعض التمـاثيل التى تتلألأ مـن بعيد . وكـانت هناك بعض السيـارات التى شوهدت أمام الكنيسة تقف فى الشـارع . وتوجه « أوكازيون » ناحية الباب الصغيـر الذى يفضى إلى المطْبخ . ومال ، ثم طرق نافذة الدور الأرضى . ففُتح المصراعان عن وجه أسـود مستدير مثل الكرة ، وجه

« سومبا » منظف الصحون ، الذى بادر المروض قائلا ، وهو يضحك كاشفا عن جميع أسنانه :

- حظك ممتاز !

فقاطعه « أوكازيون » قائلا :

- عارف ، عارف . . .

فاستطرد منظف الصحون :

- أنت تعرف كل شيء .

كان يشعر نحو المروض بإعجاب لا حدود له ، ولا يساويه سوى الاحتقار الذى يكنه للطباخ . ذلك الرجل الذى يكتفى بإصدار الأوامر ، وتتبيل الأطعمة بأطراف أصابعه ، ويكتفى بالسمنة ، بينما هو ، أى « سومبا » يغسل ويكنس وينوء تحت ثقل سلال الأغذية وينظف الآنية والدواجن ، ويقشر الخضروات .

فسأله المروض وهو يأتى بحركة دائرية :

- ألديك شيء لنا ؟ نحن ثلاثة .

- عندما يكون هناك شيء لواحد ، فهناك شيء لاثنين ، والاثنان يصبحان على الفور ثلاثة . . .

وإذا « بسومبا » ينزع طاقيته ويأخذ طاقية الحيوان ويستبدل الواحدة بالأخرى ثم يصفق فرحا .

فقال أوكازيون مستحسنا :

- عظيم . تستطيع أن تثير الضحك عندما تريد . فيما بعد ، سأكلفك بالعمل معنا فى إحدى جولاتنا .

فقال منظف الصحون وهو متلهف لإثارة إعجاب المروض :

- انتظر سأعود حالا . سأحضر كل ما أستطيع .

فقال المروض :

- جازاك الله خيرا .

- إن خدمتك شرف عظيم .

وبعد لحظة ظهر حاملا قدرا مليئا حتى حافته : شرائح لحم مخلوطة بالسمك ، وأرز ، وخضروات ، وفواكه . وعندئذ أخرج « أوكازيون » من خرجه صحنا من الصاج أعطاه للعجوز وقال لها :

- لكى تضعى فيه نصيبك . سيسر الطفل عندما تعودين إليه .

دس « مونجا » يده فى القدر ، وأخرج فخذ دجاجة وراح يلوكه بأسنانه . فقال له المروض موبخا ، وهو يوجه إليه ضربة بيده .

- إذا عاودت الكرة ، يا « مونجا » فسأسلمك للطباخ ليصنع منك صنفا من النقانق ويقدمك فى طبق من الفضة .

كان وهو يتحدث ، يقلد الطباخ ، فينفخ شدقيه ، ويجذب شاربين خياليين ويميل إلى الوراء ويمسك بطنه بين يديه كما لو كان يحمل حملا ثقيلا .

فقال منظف الصحون وهو يضحك بملء شدقيه ويقفز فى مكانه جزلا :

- بالضبط ، وهكذا !

فهمس له « أوكازيون » قائلا :

- هذا المساء ، الحق بى فى المقهى . سأنتظرك وسندخن معا .

فكرر منظف الصحون قائلا :

- نعم ، سندخن معا .

أما « صديقة » التى لـم تنبس بكلمة منذ جاءت إلى ذلك المكان ، فقـد كانت تنقب فى قاع جيـبها . كـان لا يزال معها بعض التـمر ، فقدمته للشاب وهى تقول :

- إنه من بلادكم .

* * *

ها هو الآن المروض والعجوز يتقدمـان فى ظل الأشجار الكثيفة ، على الطريق الذى يحاذى النهر .

كانت أم حسن تتساءل إذا كان « أوكاريون » لا يعرف سرها ، وإذا كان لا يحاول دفـعها حتى النهاية لكى تكشـف عن مـخبأ الطفـل . لو تحتم عليها ذلك ، لدفعت بالرجل من أعلى ثم أسرعت بالفرار .

وقال لها المروض وهو يشير إلى الصحن المليء بالغذاء :

- إيه ، يا أم حسن ، تستطيعين أن تـقولى إنك لم تضيعى نهارك سدى .

فقالت «أم حسن» وقد خطرت لها فكرة مفاجئة :

- هناك خدمة أطلبها منك .

ووضعت «صـحنها» على جانب الشـارع ، وأخرجت من جيبـها منديلا كبيرا مليئا بمدخراتها وفرشته على الأرض .

- إذا ساعدتنى فلك النصف .

فوافق قائلا :

- اتفقنا . قولى ماذا تريدين ؟

- أريد أن أرحل إلى القرية لبضعة أيام .

كانت تبحث عن الألفاظ فاستطردت قائلة :

- وذلك لأسباب . . .

فرد المروض وعيناه محدقتان بالمنديل .

- احتفظى بأسبابك لنفسك .

- إذن ، فاسمع : يلزمنى مركب شراعى ينزل إلى عرض البحر وينقلنى إلى الشاطئ الآخر وأعتقد أنك على مايرام مع أصحاب المراكب . هل تستطيع أن تعد لى ذلك ؟

- اتفقنا . . متى ترغبين فى السفر ؟

- غدا ، ليلا .

كان عليها أن تخلى الحجرة فى اليوم التالى ، ولن يكون الطفل فى أمان فى أى مكان إلا فوق المياه .

- غدا ، سينقل «أبو نواس» أجولة قطنه وسأتحدث إليه . وسيصحبك معه . فكونى فى منتصف الليل ، عند زاوية الجزيرة الخضراء . فأنت تعرفينها ، أسفل السلم الحجرى الكبير ، فى المكان الذى تربط فيه المراكب .

وبعد ذلك ، حياها واستدار ، وانصرف فى الاتجاه المضاد .

- ومن الآن حتى ذلك الحين ، ياخالة ، أتمنى لك يوما أبيض من اللبن .

فقالت :

- هل أنت واثق أن هذا سيتم ؟

فبصق فى يده وقال :

- أكثر من واثق ! أقسم بحياتى أن كل شىء سيتم كما قلت . ولن تدفعى لى أجرى إلا وأنت على ظهر المركب . . . إلى الغد

يا «أم حسن» !

فقالت وهى تلتقط الصحن :

- إلى الغد .

كانت الشمس تميل مخففة حمل السماء التى بدت تتنفس، وتتسع . وتحت أوراق الشجر ، كانت أقل الظلال حركة تمتد على شكل بحيرات صغيرة . وتلفتت العجوز عدة مرات ، لتتأكد من أن المروض لايتعقبها .

كان «أوكازيون» يتقدم وقرده جالسا فوق رأسه . كانت ذراعاه مبتعدتين ، يقلد بهلوانا يسير على حبل مشدود .

- احذر من السقوط .

صاح بها طفل كان يخوض فى النهر ، ولمح فوقه المروض متزنا فوق حافة المرتفع .

- أسقط ؟ . . أنا ! . . لا تخش شيئا ، إن الأرض تتشبث بقدمى خشية أن أطير . . إنها عجوز عاهر تتمسك بى أكثر مما يجب .

* * *

وعند مفرق الطرق ، حاولت المرأة أن تتخلص من الصحن الذى لم تعد تطيق رائحته . فما أن لمحت مجموعة من الأطفال فى ثياب رثة يتطاحنون أمام دكان صغير ، حتى اقتربت منهم .

وفى الناحية الأخرى من الواجهة الزجاجية ، كان هناك رجل ذو لحية خفيفة ورأس أشبه برأس العنزة . كان يصب من إناء خشبى

مشروبا يميل إلى البياض فى حوض تتقلب فيه فقاقيع ذهبية اللون ينبعث منها الدخان .

فربتت «أم حسن» على كتف أكثر الأولاد رثاثة ، ووضعت له الصحن بين يديه وانصرفت .

الفصل السادس

ونقبت أم حسن بطريقة محمومة فى قاع جيبها لكى تعثر على مفتاح الحجرة . كانت أصابعها ترتعد ، وكان لابد لها بعد ذلك من لحظات عديدة قبل أن تدير هذا المفتاح فى القفل . وأخيرا ، فتح الباب .

كان «حسن» قد طرح عنه أغطيته . وكانت ساقاه تغطيهما عروق بيضاء كالمرمر وكانتا منفرجتين فى صلابة عجيبة . ونادته ، ولم تزل عند العتبة ، ولكنه لم يأت أية حركة . وعندما مالت عليه ، ارتعدت لرؤية جفنيه المتقلصين ، وشفتيه المزرقتين ونحوله الذى لا يرقى إليه الوصف . . وجثت وقلبها يدق لكى تنفخ له فى فمه .

كان لا يزال يتنفس . . ولما كانت لا تجرؤ أن تمسه خشية أن يستحيل هذا الجسد الهش ترابا ، فقد ظلت تتأمله طويلا .

كان كل شيء يدفعها إلى أن تتخلى عن المعركة ، وأن تنهار وتستلقى على ظهرها كمطر الرمال ، أو كالأوراق الميتة ، وأن تتمدد إلى جوار «حسن» : ثم فليأت الموت ليحملهما ! معا كقاربين .

وارتفعت يد ، ولمست جلبابها ، محاولة أن تتعلق بالقماش . . فقد كان الطفل ، من خلال ضبابات كثيفة ، قد شعر بوجودها فجأة . ولقد كان من شأن هذه الحركة وحدها . . هذه الحركة الضعيفة ، أن زودت المرأة بحياة جديدة .

وجلست فى حذر شديد وجذبت «حـسن» . إن مسَّ يد مترِيثة ، ونفس مقنن ، وصوت رقيق ، وصدر فاتر ، هذا كل ما تبقى لها من عون تستطيع أن تقدمه للطفل .

وانحنى نصفها العلوى وهى تأخذ الطفل فوق ركـبتيها ، كان يبدو وكأنه مركَّب من بعض عصـى الصفصاف الرفيعة الهـشة . . فجعلت المرأة من نفسهـا مهدا . وجعلت من نفـسها حقل أعـشاب ، وأرضا طينية . وسالت ذراعاها أنهارا حول عنق الطفل المتصلب .

أما جلبابهـا ، بين فخذيها المنفـرجين ، فقد أصبح واديا مـستديرا يسـتقـر فـيه الثـقل الأليم الذى يمـثله ظهـر المريـض ، والساقـان المتصلبتان . ومالت رأسها أشبـه بزهرة ضخمة عطرة ، وكان جذعها يمثل شجرة وافرة الأوراق :

– ملـيكى ، روحى ، ولـدى الذى لن يلـبث أن ينهـض . ومن جديد أصبح جفنا «حسن» يشبهان جفنى أى طفل نائم .

– نم يا حبيبى . يجب أن تنام لتجتاز هذا الطريق الموحل . . هذا المساء ، سأسهر عليك ، وفيما بعد ، ستسهر علىّ بدورك .

– هكذا حال الدنيا بالنسبة لمن يـحب بعضهم بعضا . لا تتكلم . لا تتحرك ، فأنا أتكلم وأتحرك بالنيابة عنك . ولكن استمع لى : إننى أقول لك إنك ستشفى . . إن اليـوم السادس موجود ، اليوم السادس يقتـرب . يوم ، ثم يوم آخر ويتم كل شئ . . إنـنى أراك (كأن ذلك الآن) : تجرى بـعيـدا أمـامى على الطريق ، وكلما ابتـعـدت ازددت كبـرا . وهل تعلم أن ساقىّ هلكتـا فى اتباعك ، وأن هناك رصـاصا ثقيلا وقشا داخل ركبـتى ؟ ولكن ساقىّ ستظلان قادرتين على حملى

حتى شفائك .. ستحملانى ، وأنت معى ، حتى المياه ، وسنقلع الليلة القادمة .. فالماء يشفى .. الماء المقدس .. وسرعان ماستستيقظ أمام البحر بضحكات وبجسد ورجل حقيقى .

وهبت نسمة قوية مالحة فملأت الحجرة .. وفى تلك الليلة ، وجدت المرأة أول راحة لها .

* * *

وانتهى اليوم الأبدى ، وها هو الليل يتقدم .. درجات .. درجات أخرى عليها أن تنزلها .. أليست الحياة سوى نزول وصعود ؟ وبعيدا ، يوجد الشراع والبحر ، صور لابد من الاحتفاظ بها ماثلة أمامها .

لا أحد على البسطات ، وثمة ضوء أصفر يتسلل من تحت بعض الأبواب ، وليس من تحت باب السيدة نائلة .. فانحنت أم حسن ، ودست المفتاح تحت المدوسة .. إن حسن يكاد ألا يكون جسداً .. وهى تستطيع ألا تحمل بين يدها شيئا ولا يختلف الوضع .. ومع ذلك ، فهو على قيد الحياة ! أشبه بالعصافير ذات الأشكال التى لا يكاد لها وجود .

وبلغت باب الخروج ، وبقى أمامها ثلاث درجات أخرى .. كان القمر مشطورا فى سمائه ، ونوره مرآة .

كانت خطواتها تطرقع فوق حصى الزقاق .. لا أحد يطل على الشارع ..

ولكن ، كلا . فقد كان الطالب يسند مرفقه إلى النافذة . ويحلم بعالم آخر .. البنات ينزلن من الشرفات للقائك ، والناس يصبحون

لا مسرفين فى الفقر ولا مفرطين فى الثراء . كان يحلم بأسفار تحت أشجار مجهولة ، وبكتب لن يكتبها ، وبلوحات لن يرسمها ، وبمقابلات . . . امرأة تمشي فى الزقاق إنها أم حسن . ما الذى تمسكه هكذا ؟ لو أنه نزل فأعطاها هذه النقود التى يحتفظ بها فى قاع درجه ليشترى بها حلته الجديدة ؟ إن المرء ليس كريما بما فيه الكفاية . ولكن ما أعظم المجهود الذى سيبذله فى النزول ، والمناداة والجرى وراءها - ثم إن المرأة فى تلك اللحظة كانت قد اختلطت بالليل ، فلن يستطيع العثور عليها .

كان قلب «أم حسن» يطقطق كقشرة شجرة قديمة ، بينما كانت تنظر ذات اليمين وذات الشمال وهى تتقدم فى سيرها .

كانت تتمنى أن تلقى وشاحا على القمر الذى يعرى المنظر بطريقة صارخة ،. أو أن تهب ريح تحمل الرمال فتحيل المدينة إلى مدينة أشباح ، ويطمس غبارها الوجوه ، فلا يتعرفها أحد ولا يحاول كل فرد إلا الاحتماء منها . ولكن من ذا يستطيع أن يفرض شيئا على القمر . وكذلك ، فلا الرمال ولا الرياح تسمع البشر . كانت «صديقة» تضع قدما أمام الأخرى ، وشيئا فشيئا قادتها خطواتها ، بعيدا عن الزقاق ، حتى الميدان .

وحول شجرة الصفصاف التى تآكلت حتى منتصف جذعها ، كانت توجد حظيرة عربات الجياد . . كان قد بقى منها اثنتان فى الموقف ، مع الحوذيين النائمين . فغارت أم حسن فى الثانية بسبب سعة غطائها الجلدى الأسود . وكان الجالس بالداخل يعتقد أنه يجلس تحت خيمة .

كان الحـوذى يغط فى النوم وقد وضع زنده فـوق خرج من العلف منتفخ بعض الشئ وكـانت ياقة سترته الكاكية تعلو الحاجـز الحديدى الذى يتخذه مسندا للمقعـد . فجذبته المرأة منها لكى توقظه ، وقالت فى لهجة آمرة مقلدة صوت الزبائن :

- هيا ، تحرك ، أنا متعجلة .

فرفع الرجل بدفـعة من يده عمامـته البيضاء ، وكـانت قد انزلقت حتى حاجبيه ، إلا أن النعاس تمكن منه مرة أخرى .

فاستأنفت المرأة قائلة :

- اصح !

فسألها بصوت محزون :

- إلى أين تريدين الذهاب ؟

- إلى الجزيرة الخضراء . . حيث تربط القوارب . . هل تعرفها ؟

وبدون أن يجشم نفسـه مشقة الإجابة ، طوح سوطه فى اسـترخاء وبدأ الجواد يتحرك .

* * *

كان قلب المدينة مـغمورا فى حفل من أنوار النيـون واللافتات . . ولكن غطاء العربة الأسود كان منخـفضا لدرجة أن المرأة لم تكن ترى شيئا . لم تر الأوبرا بأنوارها ، ولا تمثـال الفارس ولا الحدائق المغلقة ليلا . . كانت ببقائها ثابتـة لا تتحرك ، تحاول أن تخفف من ضوضاء العربة ، وأن تخلق حول الطفل منطقة من الـهدوء . وسألها الحوذى بصوت هادئ :

- هل معك ما تدفعينه ؟

ولكن قبل أن تجيبه المرأة ، راح يكبح جماح جواده الذى كان ينطلق مسرعًا مما أحدث بالعربة اهتزازات شديدة لا تتفق وصفاء الليل .

– معى ما أدفعه .

ولم يقم الجواد أى اعتبار لرغبات صاحبه . . وكأنما اكتشف منذ قليل أن له قوائم ، فراح يعدو بالسرعة السابقة مطرقعا بحوافره . . ولما تعب الحوذى من مكافحته استسلم لقياده ، وهو يؤرجح رأسه ويقود الجواد بحركة من قبضته . وعند الخروج من المدينة ، إذا بوغدين يتوقفان ليشاهدا العربة التى كانت تترنح على الأسفلت وتصورا أن عاشقين يختبئان فيها . فصاحا بالحوذى قائلين :

– أيها القواد العجوز ، عار على سنك أن تستخدم عربتك حجرة للعشاق .

وأصدر الطفل أنينا خافتا ، إلا أن ضوضاء العربة كتمت أناته . . كانت المدينة تصغر وتنخفض ، وتبتعد ، يظنها الناظر درة ضخمة لامعة . . وكان الطريق النازل إلى النهر ردىء الإضاءة ، فاضطر الجواد إلى التمهل فى مشيته .

وأصدر الطفل أنينا أشد وأقوى ، ولما كانت المرأة تخشى أن يفاجأ الرجل بذلك ، شرعت تتكلم . . كانت تتكلم بصوت مرتفع ، عن كل شىء ، وتخلط الأسئلة بالأجوبة .

تكاليف الحياة ، والموسم السياحى ، وأبناء الحوذى . كل هذه الموضوعات دخلت فى الحديث . وعندما خشيت أن يبدو الطفل غريبا أو أن يذكر بنهاية الوباء ، أضافت بعض الجمل بخصوص الكوليرا . فقاطعها الحوذى قائلاً :

- كفى ! .. كفـى ! .. إنك ترهقيننى بالكلام .. ألا ترين إذن أنك انتزعتنى من لذة النوم وأننى لم أستيقظ بعد تماما ؟

فلزمت العجـوز الصمت ، راجيـة أن يختم الخـمول على الرجل حـتى تخـتفـى هى والغلام . ثـم مالت حـتى مـست أذن «حـسن» وهمست له قائلة :

- إننى من الآن أشم رائحة القلاع والمياه ..

واصطدمت إحدى العـجلات بأحـد الحجارة ، فـرجع الجواد إلى الوراء ، ثم شـد العـربة مـرة أخـرى وانطلق . وعـلى طول الطريق المغطى بالحصى ، المنبعج ، سارت العربة فى خطى جنائزية .

وشد الحوذى الزمام موقفا العربة فوق سطح مرتفع على الشاطئ :

- هنا ؟

- هنا .

ودفعت من النقود التى أعـدتها مقدما ، مـدتها إليه من الداخل . وبينما كانت تطأ الأرض بقدمها ، أشعل الحوذى عود ثقاب لكى يعد النقود .

- رعاك الله ، أيتـها المرأة ! لقد جعلـنى كرمك أبصق على النوم .. ما اسمك ؟

فأجابت دون أن تلتفت :

- أم حسن .

- أم حسن ؟

- نعم .

- اسمعى جـيدا ، يا أم حسن . فى اليوم الذى ستعـودين فيه ، سأصـحبـك إلى المدينة على حســابى . . . أخبـرينى بموعد عـودتك وسآتى . . ستجدينني هنا . أقسم لك .

وبدأت ترتقى الدرجات العريضة - فناداها الرجل :

- ماذا تحملين ؟ هل تريدين أن أعاونك .

- كلا ، كلا . .

ثم طرقع السوط ، وســمع صرير المحــاور ، ودارت العربة نصف دورة وعادت أدراجها إلى المدينة .

الجزء الثالث

الفصل الأول

تسربت نسمة فاترة إلى ثياب « صديقة » فنفختها بينما كانت تهبط درجات السلم الأربع البيضاء تحت أشعة القمر . كانت مجموعة من القوارب المثبتة إلى الشاطئ بواسطة السلاسل تطفو على الماء أسفل قليلاً . وكانت أشرعتها مطوية حول صوارى مرنة على شكل أقواس تطليها صوارى أكثر طولا . وكان أصحاب الوقارب راقدين داخل قواربهم وهم يغطون فى النوم . وكان هناك هلبان أو ثلاثة مطروحة على حافة الشاطئ .

كان هناك بمفرده على الشاطئ عارى القدمين لا يزال يسهر ويغنى وهو يتطلع إلى النهر :

« فى الأرض أو فى الماء

« ستضيع أغنيتى

« وحيث يرتفع السواد

« ستنمحى أغنيتى » .

كانت الخطوات تزداد قربا . وبعــد هبوط كل درجة ، كانت المرأة تشعــر أنها أخف وزنا . . أمــا الرجل الذى كان يرهف الســمع رغم غنائه ، فقد التفت قائلا :

- أم حسن ؟

- نعم !

- أنا « أبو نواس » .

كان متوسط القامة ، عــريض المنكبين نحيل الجسم ، وكان جلبابه الأزرق - وقد رفعت أطرافه ودخلت تحــت حزام من الحبال - يكشف عن سروال رمادى مضــغوط حول سمانتيه . . وكــانت هناك « لفافة قطنية » مسدلة على أذنيه تكاد تخفى ملامحه تمامًا :

- أهلا وسهلا !

ثم نادى مساعده وكــان مختفيا خلف شــحنة المراكب . وأخبره أن المسافرة قــد وصلت وعلى ذلك فهو يستطيع أن يبــدأ بنشر القلع . . كان المســاعد يجلس مــعلقا قدمــيه فــوق الماء يأكل الذرة عند مقــدمة القارب ، ويلهو بقذف الحبوب فى الهواء والتــقاطها فى فمه . فهمهم قائلا إن المرأة قد وصلت قبل مــوعدها بساعة ، ولكنه نهض مع ذلك ليقوم بما طلب منه . وقال النوبى :

- كنت أظنك بمفردك .

- إنه حفيدى . وهو لا ينقطع عن النوم ، فلن يضايقك .

كان وجــه « حسن » مخــتفيــا تحت قطعة نامــوسية مــربعة ، وفى

حلكة الليل لا يكاد الناظر أن يميز شكل جسده . ولقد قدمت « صديقة » موعدها مع المروض عن قصد متصورة أنها بذلك تستطيع أن تجد الوقت الكافى لإحفاء الطفل فى قاع القارب .

وسندها « أبو نواس » من مرفقها وأعانها على الركوب فرأت وجهه بفضل أشعة المصباح الغازى الذى كان موضوعا قرب الدفة . لقد تركت الشمس والسنون آثارها على ملامحه ، ولكن دون أن تكل أو تتصلب . كان الرجل يبدو صامتا بلا خبث وكأنه غريب عن هذه الضفاف ، كأنما قد قضى حياته في عرض البحار .

- دسوقى ، هيئ مكانا للغلام .

وتحرك الشاب السنوبى حول الصارى وجعل يلتقط بقايا الذرة التى كان قد وضعها على الأرض وراح يقضمها قبل أن ينادى المرأة قائلا :

- من هنا ، من هنا !

وتبعته العجوز .

وعلى المقدمة كانت توجد بالات من القطن تبطن المركب ، وقد وضعت الواحدة فوق الأخرى ، وكانت تصل فى بعض الأحيان إلى ارتفاع يبلغ العشر بالات . وكانت « أم حسن » تحمل الغلام بين ذراعيها وتنظر إلى « دسوقى » وهو ينقل البالالت فى خفة ونشاط . . . وكان كماه المشمران يكشفان عن ذراعيه السوداوين اللامعتين . وكانت بقية كوز الذرة بين أسنانه . وكان يقفز فى مرونة كالقط عارى الساقين ، حاملا إحدى البالات واضعا إياها فوق الأرضية ، معاودا الكرة عدة مرات متتابعة حتى هيأ مكانا يشبه الخندق .

- هاك مكانًا !.. منزل ، منزل حقيـقى من أجل طفلك . سينام بداخله فى هدوء ، وبينما كان الشاب النوبى يبـتعد ، تردد لحظة وتنهد ، وذلك قبل أن يلقى إلى الماء بقـلاحته الفارغة ، وبـعد لحظات شرع فى حل القلاع .

وبعد أن نزعت أم حـسن القماش الرقيق عن وجه الـغلام لصقت شفتيها بخده . كان الجلد يلتصق بالعظم ، ولم تعد هناك ليونة اللحم ولا فتـور الماء . وركعت بعـد ذلك على سطح البالات وقـضت كل وقتها فى إدخال الجسد إلى قاع الخـلوة ، دون اهتـزازات . كان الغلام فى نحوله وعـدم حركتـه وهو قابع بين هذه الحـواجز - كان قـماش الجوت الذى صنعت منه البالات قد اكـتسب تحت القمر لون الجرانيت - يذكر الناظر بملوك العصور الغـابرة الذين كانوا ينامون بين جدرانهم الحجرية فى انتظار رحلة العودة الكبرى .

فهمست المرأة قائلة :

- كل شىء يسير كما نريد .

- أنحن مسافران ؟

كان هذا صوته . لقد تكلم الغلام . أكان هذا حقيقة ؟ صوت ظل صامـتا طيلة يومين كاملين . نـفثة همـهم بها بالكاد . وبرغم غشـيان المرأة ، فقد استمـرت تسمع هذا الصوت الذى ظل يتذبذب طويلا فى رأسها .

كانت المرأة مـرتبكة من فرط العـرفان نحو حـسن ، ونحو الله ، ونحو النهر ، ونحـو العالم بأسره ، فمالت إلى الأمام وقـبلت حافة المركب .

وأجابت بصوت مرتفع :

- نعم ، الشفاء قريب .

كانت وهـي مائلة فوق الحـفرة ، تأمل فى رد آخـر ، ولكن هذه المرأة لم يبلغـها شيء . وعندئذ تمددت بكل طولـها وبسطت ذراعـها حتى قاع الخلوة . ومـدت أصابعها لتـداعب الجبين الرطب والوجنتين البـارزتين ، متـمـهلة حول الفم والـذقن . كان الوجـه باردا . باردا بحيث شعرت « أم حـسن » بيدها تتجمد ، فـسـرت فى ذراعها رعدة بلغت إبطها وإذا بجسدها كله ينتفض من الارتعاش .

وقال أبو نواس بعد أن مضت ساعتان :

- إذا لم يحضر « أوكازيون » بعد قليل فسنرحل .

فانتصبت المرأة صائحـة معلنة أنها تدين للمَروض بمبلغ من المال . فقال دسوقى مؤكدا :

- إذا كنت لم تدفعى له أجره ، فـسيأتى حيا أو مـيتا . ولكن إذا تصادف ولم يأت ، فهنيئا لك بنقودك .

فردت قائلة :

- الدين دين !

وبعد ذلك ، مـالت على حسن وهمـهمت له بأنها سـتبتـعد عنه لحظات :

- لا تخف ، لن يطول ذلك . . إذا كنت لا زلت تستطيع أن تَعُدَّ ، فَعُدَّ حتى عشرة ، سبع مرات متتالية ، وبعد ذلك سأكون إلى جوارك من جديد .

لا يمكن أن يتأخر المروض أكـثر من ذلك ، ورأت أم حسن أن من الأفضل أن تقف ناحية الشـاطئ لكى تمد له النقود دون أن يحتاج فى ذلك إلى الصعود على سطح المركب .

كان الشـراع يرفرف على أهبة الـرحيل . . ولم يعد يسـمع سوى ارتطام المياه بجـوانب المراكب ، وفى بعض الأحيان مرور جـماعة من الطيور .

فقال النوبى :

- سنرحل . لا أستطيع أن أنتظر بعد ذلك . . سأدفع بالنيابة عنك عندما أعود . وشب دسوقى على أطراف أصابعه تأهبا للعمل ، بينما كان أبو نواس يستعين وهو واقف بركيزة طويلة من الخشب فى تحريك المركب وإبعادها عن الشاطئ .

فتـراجعت المركب وهـى تتمايل . وابـتعدت عن صـف القوارب الأخرى . وعلى حين فجـأة ، سـمـع صـوت صـياح . . فقد ظـهـر « أوكازيون » عند أعلى الدرجات . كان يصيح قائلا :

- أوه . . أوه . . انتظروا ، يجب أن تنتظرونى .

كان قرده يحيط رقبته بذراعيه ، فهبط السلم فى سرعة بالغة وهو يحتج ويطوح بذراعيه .

وواصل صياحه فى اتجاه المركب ، بينما كان « مونجا » وقد انتصب شعره يتشبث مستميتا بسيده .

كان وهو يجرى فوق بياض الدرجات ، يشبه على التوالى عنكبوتا ضخما ، وطائرا أسطوريا ، وشجرة مترنحة ، وساحرا وشبحا ذا ألف ذراع ، فارتعدت المرأة لرؤية كل هذه المسوخ والتغيرات ، وتراجعت لتقترب ما وسعها الاقتراب من النوبى .

وما أن بلغ المروض الشاطئ حتى خلع نعليه ، وأمسك بهما ، ثم خاض حتى منتصف ساقيه فى المياه وبعد ذلك تعلق بالمركب وصعد عليها دون أن يكترث لذلك « أبو نواس » . وفى النهاية عندما أعياه الإرهاق خر جالسا عند قدمى العجوز .

وقال لها وهو يرمقها بنظرة عتاب :

- أم حسن . . ما كنت أظن أن يصدر عنك هذا .

فقال النوبى :

- اسكت . أنت المخطئ ، لم يكن بوسعنا أن ننتظر حتى الصباح .

فأسرعت العجوز بإفراغ جزء من نقودها فى يدى المروض المبسوطتين ، آملة أن يعجل بالنزول . ولكن المركب كانت قد بلغت عرض النهر فكان لزاما أن تمضى فترة من الوقت تدور خلالها نصف

دورة وتعود إلى الشاطئ . ودون أن تنبس بكلمة أدارت المرأة ظهرها وتوجهت فى بطء إلى مخبأ الغلام .

وجلست المرأة قرب الغلام ، ولم تأت أية حركة ، ولم تنطق بأية كلمة يمكن أن تشعره بوجودها . ولكنها أسدلت طرفا من وشاحها فتدلى حتى قاع المخبأ . وبمجرد أن مس الطفل ، أدرك هذا الأخير أن جدته عادت . وقال المروض :

- والآن . أنزلنى يا « أبو نواس » .

فأجاب أبو نواس :

- لقد أضعت من وقتى أكثر مما ينبغى . فإما أن تعود سابحا وإما أن تبقى معنا .

- سابحا ؟ أنا لا أجيد السباحة . أنا لا أعرف إلا الأرض . أما الماء والهواء فهما ليسا من اختصاصى .

- إذن فأنت لا تملك الخيار وعليك بالبقاء .

كانت « صديقة » وهى تجلس القرفصاء قد سمعت كل شىء . فلعنت عناد النوبى وتصميمه . . وغارت أظافرها فى إحدى البالات ممزقة نسيج الجوت ، وظلت تغور حتى شعرت بليونة القطن تحت أصابعها .

وألقى « أوكاريون » نظرة حزينة ناحية الشاطئ ، وعالية ناحية المدينة التى كانت غارقة فى سباتها - و لما لم يدر على من ينزل

سخطه إذا به يجذب « مونجا » ويعلقه من رقبته ويدسه داخل الخرج . وجعل يضغط عليه ويشد رباطه قبل أن يقيده .

وإذا بقـارب . . يحف بمركب أبى نواس وكان هذا القـارب يتجـه ناحية الشاطئ ، وكان شراعاه متقاطعين على شكل (×) وكان مملوءًا بالجرار والفخار . وراود العجوز الأمل فى أن يقفز المروض من مركب إلي آخر ، ولكنه لم يفعـل من ذلك شيئا . وكأنه اسـتسلم لورطته ، فحاول أن يـكون لطيفًا مع النوبى . إلا أن هذا الأخيـر لم يكن يبدو أنه يهتم إلا بتيارات المياه وتقلبات الريح . فكان ينظر بعيدا إلى ما بعد مقدمة المركب التى كانت مرتفعة قليلا .

كان المروض يناجى نفسه قائلا :

- لماذا أحـمل الهم ؟ أنا رجل حـر ، ولا شىء يربطنى بأى مكان هنا . . أو غير هنا . . الأمر سـيان . . هيا أيها النوبى فلنخض وسط الرياح ، ولننزل إلى عرض البحر .

ولما لم يجب « أبو نواس » خاطب قرده بصوت مرتفع :

- إن رحلة قصيرة من شأنها أن توسع مداركنا « يامونجا » .

عندئذ فقط تذكـر أنه سجن القـرد . فرفع خرجـه ، وربت عليه خفيفا ، إلا أن القرد لم يبد أى رد فعل .

- ايه ! . . هو ! مم مونجا . . قردى !

وفى جزعه ، حل الرباط وأخرج الحيوان الصغير من الخرج . كان جسمه رطبـا رخوا ، وكان يبدو شبه مـختنق . ووضع « أوكازيون »

وهو يرتعد ، الحيوان على المقعـد . وراح أمام استغراب « أم حسن » يطلق صياحًا حادًا ، ويندب كما تفعل النائحات ويلطم خديه ويجذب ثيابه .

- ايه ! مونجا !.. حبيبتى « مونجا » !

وإذا به وقد زاغت عـيناه . يهز القرد ، ويشـد ذيله ويدلك ظهره وقفاه ، ويقرصه من أذنيه ، بدون أية نتـيجة ، وأخيرًا أخذه بين يديه ولصق شفتـيه بشفتى القـرد ، وأخذ ينفخ فى فمه وهو يـتوسل قائلا والدموع ملء عينيه :

- لا تتركنى يا حبيبى :

وهنا غمز « مونجا » بجفنيه ، وأغلق فمه ، وحرك رأسه ، ودفعة واحدة ، إذا به واقفًا على قوائمه ومـعاودا القفز من جديد ، فأخذت الدهشـة « أوكـازيون » فخـر على الأرض وجـعل يتـأمل القـرد فى اندهاش وذهول .

وراح يصيح قائلا وهو يصفق بيديه :

- ماذا أصبح أنا بدون « مونجا » .. يا خبيثة .. تتظاهرين بالموت لكى تلقى الرعب فى قلبى .. يا خبيثـة .. يا ملعونة .. فارتسمت على وجه النوبى ابتسامة غامضة .

وحدثت أم حسن نفسها قائلة :

« وكم من القرود حياتهم تسـاوى حياة طفل ؟ » وتساءلت إذا كان الله يستخدم هذا النوع من المقاييس .

الفصل الثانى

كان النهر يتلألأ كظهور السمك ، ويزداد عرضا ، وينساب بعيدا عن المدينة وكانت بعض المنازل العائمة (العوامات) وتطفو على النيل ، وفوق بعض سطوحها كانت تتلألأ فى بعض الأحيان . أنوار صفراء .

لم يكن النوبى كثير الثرثرة ، وكان دسوقى يغط فى النوم ، أما أوكازيون ، فقد كان يتهيأ للنعاس . فكان السكون الشديد يخيم فى كل مكان . وشعرت المرأة بالاطمئنان ، ترى هل يختفى القلق باختفاء المدينة ؟ لم يعد أمامها سوى رقعة واسعة من المياه ، وأمام هذه المياه مياه أخرى وهكذا دواليك ، حتى البحر .

يوم واحد ، بل ليلة واحدة ويخرج الطفل من الظلام . . وحتى ذلك الحين ، يكفى أن تبعد أى تهديد ، وأن تتقى الخطر ، وأن تسهر ، كما تسهر إناث الذئاب بعيون تشق ظلمة الليل . يكفى ألا تنام .

كانت أم حسن تفكر فى « سعيد » هل عرف الراحة فى تلك الليلة ؟ وفكرت فى « بروات » ، قريتها : هل دفنوا موتاهم فى قلوبهم ، وهل عرفوا الراحة فى تلك الليلة ؟ الراحة . ما هى الراحة ؟ حتى فيما بعد ، عندما يشفى الغلام ، قد لا تصادف الراحة أبدا . وهل

عرفتها قبل ذلك ؟ « أنا لم أخلق للراحة . . » شيء ما كان يعتمل في نفسها ، ويدفعها بلا توقف إلى الأمام . شيء ما لا تعرف كيف تسميه ، ويشابه ، بلا شك ، الحياة الغامضة .

ومضت ساعات طويلة . كان تموج المياه يهدهد « أوكازيون » الذى كان يرفع عينيه ناحية القبة السوداء التى ترقمها النجوم ويستسلم للغبطة والسرور .

كانت هناك بسط من التعب تثقل كتفى أم حسن . وتحنى ظهرها ، وتؤلم رقبتها . فسقط رأسها عدة مرات على صدرها ورفعته مرات عديدة ، وسرعان ما تخلت عن بذل أى مجهود ، وغرقت فى النعاس .

وفى شهامة ، حل المروض قيد القرد :

- اذهب ، أيها النمس . . لقد أطلقت سراحك !

ثم أضاف يخاطب النوبى :

إنه حذر جداً فلن يسقط فى الماء .

إلا أن « مونجا » رغم كل هذا التشجيع ، لم يتحرك .

- هيا ، انتهز هذه الفرصة ، يجب أن تبرهن لى أنك بمفردك تستطيع أن تحسن التصرف . . اقفز وامرح ! هذا الفراغ خلق لمتعتك . إنه ليس مسرفا فى الارتفاع ، ولا مفرطا فى الاتساع . ما يكفى بالضبط لكى تمارس حريتك دون أن تفقدها . . المركب لك ، مع قطعة السماء التى فوقه . انظر ، كيف ينساب ، إن الوضع يتغير دائما . فلدى كل دفعة من المركب ، على أثر كل ثانية ، نكون فى مكان آخر . فوق أرض أخرى ، تحت سماء أخرى .

كان القرد يبتعد ، ويعود أدراجه ، ثم يبتعد من جديد :

– كل شىء يتحرك ، أيها النوبى ، حتى التراب العالق بخطواتنا ولكن ماذا يوجد داخل هذا كله ؟ فـراغ ؟ . . من إذن يعرف من أمر هذا شيئـا ؟ ولا يمنع أن كل شىء لا يتوقف ، وكغيـرنا ، نحن أيضا نسيـر ، هذا أكيد . مـثل الماء والهواء والنجوم . فنطق النوبى أخـيرا وقال :

– هذا صحيح ، إن سكون الليل يجعلنا نفكر فى أشياء غريبة .

كان مونجا فى هذه الأثناء متعلقا فوق البالات ، يلهو بحك الجوت وإخـراج خيـوط منه يلوكـها بأسـنانه . ثم تقدم علـى أربع يتشـمم الأماكن .

– لماذا اخترت أن تعيش فوق الماء ، أيها النوبى ؟

وانتظر الإجابة ، ولكن الآخر لم يقل شيئا .

– أما أنا ، لو كـانت لى الخيـرة ، لاختـرت أيضًا الأرض . هل تعلم أننى لو خيرت بين السماء والأرض لاخترت الأرض أيضا ؟ إننى أحب ما يلمس باليد ، ما يوجد . ما لا ينساب من بين الأصابع . . إننى أحب النرجيلة ، والشاى الأسود ، والحب . . الذى لا يلاحقك باستمرار ! أحب المال لأنفقـه فى الحال . يروق لى أن تكون «مونجا» متسربـلة مثل الأميرة ، وأن أرتدى أنا حول كتـفى ثياب ملك ، حتى ولو لم يكن لدى فى اليوم التالى زيتونة أتبلغ بها .

فى هذه الأيام ، استطعت أن أقوم بعمل عظيم ، فـقد اكتشفت – بالحيلة – حالة من حالات الكوليرا الأخـيرة . هل تعرف أننى كوفئت على هذه العمليـة ؟ بطريقة سخيـة . . . إيه ، أيها النوبى ،

هل تسمعنى ؟ لماذا تشيح بوجهك ؟ إننى أعتبر ذلك عملا خيرا فإننى أشى بمرض لأنقـذ الأصحاء . ألا ترى أن هذا الإجـراء سليم ؟ إننى مرتاح الضمير !

فقال النوبى :

- إذن فكف عن الدفاع عن نفسك .

- إننى لا أدافع عن نفسى ، بل أنا أفسر موقفى . . لو أننى بدأت نشاطى منذ فترة أطول ، لعدّتنى المدينة بين المصلحين . . ولأقامت لى يوما تمـثالا من البرونـز ، ولكنت طالبت بأن يُنحت تمثالٌ لمـونجا إلى جوارى . . إيه ألا تجيب ؟

وبينما كان القرد يقفز من بالة إلى أخرى ، إذا به يصل بالقرب من العجـوز النائمة . وفى خطى مسـترقة ، دار حـولها ، ثم جلس إلى جوارهـا . وتظاهر بالنوم مثلهـا . ولما سئم مـن هذه الحركـة ، عاد ينقب ويشمشم فـى كل مكان . وبعد لحظات اكتشف المخبـأ . فمال ومد ذراعـه . ونقـر على جدرانه ولمس الطفل السـاكن . وراح وهو يقـفـز فى مكانه يرفع يديه ويطـلق الصراخ الحـاد ليـخطر سـيـده . واستيـقظت أم حسن مذعـورة ، وأدركت الخطر ، فلكمت القرد فى رقبته فاندفع يتدحرج حتى أقصى المركب .

فصاح المروض قائلاً :

- كيف تجرئين على رفع يدك على مونجا ؟

وخلع أحـد المصابيح ، وأخذه ، وذهـب مهددا المرأة نحـو المكان الذى كانت تقف فيه . وسار يترنح فوق بالات القطن ، وإذا به وجها لوجه أمامها . ولكنه ما أن لمح المخبأ حتى دفع أم حسن إلى الوراء ، وتقدم عدة خطوات وسلط نوره نحو قـاع الخلوة . وما أن رأى الجسد المزرق ، مغـمورا فى أشعة الضـوء ، حتى لبث متسـمرا فى مكانه ، فاغر الفم ، زائغ العينين . ومرة واحدة ، أخذ يصيح قائلا :

- الكوليرا ! . . الكوليرا !

وعاد أدراجه ، وأسـرع إلى النوبى يأمره بالتوجـه إلى الشاطئ فى الحال . كان يطوح بالمـصباح بحيث إن دسوقى خـشى أن يشعل النار فى المركب ، فانتـزع منه المصباح فى عـنف ، وهو لا يكف عن فرك جفنيه .

- الموت بصحبتنا ، أيها النوبى ، فلنعد بسرعة .

فقال أبو نواس :

- الموت دائما بصحبتنا .

- أسرع ، أيها النوبى ، لم يعد هذا وقت النقاش .

فأجاب الآخر .

- كف عن الجلبة ودع هذه المرأة لغلامها .

- أنت مجنون ! . . أنت أيضا . أنت مجنون !

ولما أدرك أن كـلامـه لا يجـدى ، وأنه يتـلاشى أمـام جـدار من اللامبالاة ، التفت المروض إلى المرأة واصفا إياها بالمجرمة والمتآمرة .

كانت العجوز واقفة أمام المخبأ ، جاعلة من جسدها حاجزا لحسن ، ولما خشيت أن يبلغ هذا الصراخ الطفل ويصيبه بالذعر ، أخذت طريقها متجهة ناحية المروض . وهبطت السطح ، وواصلت التقدم فى الممر الصغير الذى تحوطه البالات . كان العنف يغير ملامحها ويطرح قناعا على وجهها .

ونفثت من بين أسنانها قائلة :

اغرب عن وجهى .

وتقهقر « أوكاريون » خطوة إلى الوراء ، إلا أن المرأة كانت تواصل الاقتراب وسرعان ما أصبحت منه قريبة بحيث إنه شعر بأنفاسها الساخنة على خديه :

وصاحت به قائلة :

أقسم لك . سأنزع أحشاءك ، إن لم تلزم الصمت .

فتلعثم المروض ، وتقهقر من جديد .

كلمة أخرى ، كلمة واحدة ، وألقى بك فى الماء !

كانت أم حسن وقد أحاطتها القلاع التى تنفخها الرياح ، تبدو مرعبة ، تعلو أوكاريون برأسها ، كانت تبدو ضخمة هائلة ، وإذا بالمروض ينطرح على أربع ويلوذ بالقرب من المقعد ، ساندا إليه ظهره ، ويغمض عينيه حتى لا يرى شيئا . وكان مونجا قد قفز فوق ركبتيه منذ قليل . فكان كل منهما ينزوى فى صاحبه ، وأصبحا يشبهان كومة من الحجارة .

هتف المروض فى أذن قرده قائلاً :

- الحياة مصيبة . مصيبة حقيقية !

وعادت المرأة فى بطء إلى مكانها . ثم جلست فـى الجهة الأخرى من المخبأ ، فى مواجهة المروض . وكـانت لا تفتأ ترمقه بنظرة حزون . فلم يجرؤ هو ولا قرده عـلى رفع رأسهما طول الليل .

أما الشاب النوبى الذى لـم يكن يدرى من الأمر شيئا ، فـقد كان يتمتم بالدعاء فى أحد الأركان .

وأما أبـو نواس الذى كان يتطلع بعـيدًا ، فـقد عـاد إلى غنائه من جديد :

أنا أغنى للقمر

والقمر يغنى للعصفور

والعصفور للسماء

والسماء للماء

والماء يغنى للشراع

والشراع بصوتى

يغنى للقمر

وهكذا دواليك

فى الأرض وفى الماء

ستضيع أغنيتى
وحيث يرتفع السواد
ستنمحى أغنيتى
القمر يسمعنى
وعن طريق القمر
العصفور يسمعنى
والسماء تسمعنى
وعن طريق السماء
الماء يسمعنى
والشراع يسمعنى
وعن طريق الشراع
صوتى ، صوتى يسمعنى
وأنا أسمع صوتى .

ومضى وقـت ، ثم بزغ الفجـر فى الأفق . وإذا بسمـاء من الجواش تتوج النهر والأرض .

الفصل الثالث

كان مـدى النظر يصل إلى مسـافة بعـيدة ، بفـضل الصبـاح المنير الصحـو الجاف ، وبسـبب الريف المنبـسط وفى بعض الأحيـان كان المتطلع يظن المنظر قـشرة من الخـضرة بسطت على مـساحة مـترامـية الأطراف . وكان النهـر يضيق وينكمش بين الشاطئين اللذين يشـبهان ظهر السلحـفاة واللذين كـانت تغطيهمـا الرمال أو الحـصى . وكانت الشمس المرتفـعة تلهب المنظر ، لذلك فعنـد رؤية أشجار الصفـصاف الباكيـة والأشجار الصمغية ، كـان المرء يتخيل مقدمـا ملاذ الأغصان التى كانت تشكل ملاجىء من الظل على شاطىء المياه .

وفى خلال تلك الليلة وحدها تقدم المروض فى السن عدة سنوات . كان يجلس مـتكورا ، وقد وضع مرفقـيه على ركبتـيه ، ولصق يديه بخديه ، وعلي تلك الحـال كان يهز رأسه ذات اليـمين وذات الشمال وهو يصدر أنينا شاكيا . أما القـرد الذى كان ساكنا إلى جواره ، فقد كان لا يكف عن الغمز بعينيه .

وعند بزوغ النهار تقريبا ، كان « أبو نواس » قد استسلم للنوم بعد أن عهد بالدفة إلى الشاب النوبى .

كانـت « أم حسن » تعلم أنه لم يعـد هناك ما تخـشاه من جـانب المروض ، فـقد ظلت طوال الـليل تسلط عليـه نظرها ، وكان يبـدو

منهارا ، مغلوبا على أمـــره ،دون أن يبـدى أى رد فـعل . ونهضت « أم حسن » وولت وجهها ، وتقدمت عدة خطوات لكى تتأمل منظر الشمس . سيبلغ الكوكب ذروته ، ثـم يميل للمغيب ، ويأفل ، وبعد ذلك يولد من جـديد . وعند شروقـه القـادم يكون الطفل قد صـرع الموت .

وخلال ذلك اليوم الأخـير ، ستجبـر نفسها على عـدم إزعاجه ، وستحـاول أن تتجنب كل ما من شـأنه أن يتطلب مجهودا لا يـفيد . وربما حاولت أن تنظر إليه أقل ما يمكن ، حتى لا تكلفه مشقة الإشارة . وقد لا تستسلم للجزع ، فهذا أيضـا يمكن أن ينـتقـل إليـه ، ينبـغى « لحسن » أن يـغرق تماما فـى تحوله القادم ، وألا يـطرأ ما يوقف سـير العمل الغامض البطىء الذى يجرى فى جسده .

وهكذا ظلت تحـوم طويلا حول الغـلام الراقد . كانت قطـعة من القماش مثبتة فوق المخبأ ، تواريه تماما عن الأنظار .

وبعـد ساعـة ، وقد نفـد صبـرها تمامـا ، مالت ثم تمددت فـوق البالات ، ورفعت طرفـا من الغطاء وقالت لنفسـها : « لحظة فقط ، مجرد أن أراه » .

وعلى الرغم من تصميمهـا ، فما أن رأت « حسن » حتى دب فى قلبها رعب شـديد ، كانت أعضاؤه ضـئيلة رطبة ، تغطيهـا طبقة من العرق الـبارد كأنهـا بشرة أخـرى . وكانت تصـعد من الخلوة رائـحة منفـرة . فـقـد كان جـلباب الطـفل مـلوثا ببقـع من البـول . وهمت

« صديقة » بأن تنزعه عنه ، وأن تغسله وتجففه فى الشمس ثم تعيده إليه نظيفا ناصعا . إلا أنها أعرضت عن ذلك فى الحال ، فقد كان المجهود الذى يبذله الطفل فى التنفس يفوق مقدرته . ولم يكن بوسعها أن تطلب منه شيئا آخر . كان كأنما قد ركب فى جسده محرك يجتهد فى المحافظة على سيره وأن أقل إهمال يمكن أن يضيّعه .

كانت عينا « أم حسن » مبتلتين . فطرحت قامتها إلي الوراء حتى لا يلاحظ الغلام أنها تبكى . وعلى الرغم من وجهها ونظرتها الجامدين ، إلا أنها كانت تشعر دائما بأن شيئا ما لا يمكن أن يخفى على حسن .

وأعادت « صديقة » القماش إلى مكانه والطفل إلى مخبأه ، وتفرغت لمجاهدة نفسها . لكن عبثا ، فقد كانت كل ساعة تمضى تثقل قلبها فى عنف وقسوة . كانت تئن قائلة : « لقد بلغت من الكبر عتيا ، عتيا . إننى لا استطيع أن أفعل شيئا من أجله » . لم تشعر فى حياتها بمثل هذا الاضطراب . ورفعت رأسها إلى تلك السماء الصحو المجزعة كالصدفة ، فأخذتها نوبة شديدة من البكاء . كان « دسوقى » يراها من الخلف ، لكنه شعر من رعشات كتفيها أنها تبكى . فمصمص بشفتيه عدة مرات ، وقد أصبح لا يدرى ماذا يقول عن هذه المغامرة كلها .

وتركت « صديقة » العنان لدموعها مستسلمة لسيل جارف داخلى لم يعد هناك ما يوقف زحفه . أكانت هى ، تلك المرأة التى سارت

كل تلك المسافات ، وقامت بكل ذلك البحث مسيطرة على اليأس وعلى الخوف ؟ أهى التى تحملت أن تقيد خطواتها بخطوات المروض ؟ وهل هاتان الساقان هما اللتان حملتاها فى تجوالها خلال المدينة ، وتسلقت بهما كل تلك الدرجات ؟ وهل ذراعاها هما اللتان دفعتا العربة ، وسندتا الطفل وحملتاه ؟

وطأطأت رأسها تحت عبء كل تلك الأفكار وتهاوَت عليها الأحلام المزعجة وأرهقتها ، فلم تحاول أن تقاومها .

إن حسنا يزن ثقل طفلين معا ، ثم ثلاثة أطفال ، ثم ثمانية . . ثقل مائة طفل ! وعلى طول طريق وعرة لا ترى المرأة نهايتها ، جعلت تسير بلا كلل . إن كل خطوة تبدو أبدا . فتلتوى ساقها وتسقط على الأرض . ثم تحمل جسدها الهرم وهى لا تزال تحمل الطفل بين ذراعيها المنبسطتين . وفى أقصى الطريق ، تمثل كتلة ، ربما تكون صخرة . هل هذه الكتلة من الجرانيت هى وجهتها ؟ ومع ذلك فهى تتقدم ، وتواصل السير . ولكن ها هى ذى تنهار فجأة . فيتلفت الغلام ويتشبث بكتفيها ، ويتعلق بها ويرقد على ظهره ، وإذا بنفسه البارد يجمد أذنها . إنه يهمس لها بألا تتوقف أبدا . فتتقدم ، ولكنها تزحف فى هذه المرة مستعينة براحتى يديها ، والطفل يثقل على عظمتى منكبيها وعلى كليتيها . . لابد من التقدم بأية طريقة ، والابتعاد عن هذا الطريق ، والتخلص من هذا الثقل المحطم ، والابتعاد عن هذه الحجارة التى تمزق يديك ، وبطنك ، لابد من

الفرار من هـذه الطريق الخالية من الأشجار ، وهذه الشـمس التى لا ترحم . وسمعت خرير مياهه على بعد . . أتوجـد عين ماء هناك ، فى هذه الصخرة الجرانيتية ؟ أهو سراب ؟ ماذا يهم ؟

وفى الوقت نفـسه انـطلقت عيـون أخـرى . كانت « أم حـسن » سابحة فى أحلامـها المزعجة ، وهى جالسة فـوق البالات ليس بعيدا عن الغلام ، تبكى بلا هوادة ، كانت عيناها تفيضان بالدموع . وكان خداها الحمراوان المغضنان غـارقين تحت الدموع . واستسلمت ، ولم ترفع حتى ذراعيها لتجفف بظهر يدها وجهها الغرق فى العبرات .

كانت الدموع تسيل بالقرب من زاويتى شـفتيها ، هابطة على طول رقبتها ، مبللة ياقة جلبابها . منذ كم قرنا لم تبك صديقة ؟

المنظر يمثل قرية . . . والحـدث يجرى اليوم ، أو أمس ، في زمن ضائع . . . وعلى الطريق الزراعى الذى بيضه التراب ، لا يرى الناظر إنسانا . و« صديقة » تضع على الطريق دميتها وتذهب لتغمس قدميها فى الترعة . وفجأة تقـبل عربة يجرها بغل هائج ينعطف على الطريق . العجلات تدور ، سريعة ، مجنونة ، مصدرة صريرا مضجراً . وقبل أن تستطيع « صديقة » أن ترتقى المنحدر ، تلف العربة وتنطلق وتمر ، لقد مرت . . . ولم يبق فـوق الأرض سوى خرق ، وقليل من القش وبعض العصى الرفيعة .

وقالت نبيلة شقيقتها الكبرى :

- سأصنع لك غيرها .

- أبدا ، أبدا . . . هذه الدمية هى التى أريدها .

- بهذه الخرق نفسها ، وهذا القش نفسه وهذه العصى نفسها ، سأصنع لك واحدة أخرى مثلها . . .

- لا ، لا ، إننى أريد دميتى نفسها .

وإذا « بصديقة » تبكى ، ولم يبق بين يديها سوى تلك الكومة الصغيرة من الوحل والقماش . لن يعزيها شىء مدى الحياة .

ومع ذلك . ففى منتصف الليل ، كانت قد استنفدت دموعها . وعندما دهشت وخاب ظنها لنفاد دموعها بهذه السرعة ، عادت إلى الترعة لكى تودع فيها حطام دميتها فى جلال وهيبة . وعندئذ تبتعد الدمية ، ملفوفة فى كفن رطب لكى يدثرها أزل من الدموع إلى الأبد .

ومرة أخرى أيضا ، صديقة تبكى ، صانعة مسبحة من الدموع تربطها بدموع الحاضر . إن والدها يضربها لأنها ترفض الرجل الذي اختاره لها . والحجرة مغارة مظلمة والوالد وجهه متعب ، أكله الإرهاق ، ولكنه يجيد الضرب . والأم متكورة قرب الجدار تردد كل ما يقوله كالصدي . أما « صديقة » فإن رأسها مدفون بين ذراعيها . وقد رفعت مرفقيها ، تتلقى الضربات ، ولكنها تعلم أنها لن تستسلم . وعلى الرغم من الأب الذى يهددها الآن بهراوته ، والأم التى ترتعد فى أحد الأركان ، والجيران ، والخطيب الذى ينتظر ردا ، فإنها لن تستسلم . إنها لا تبكى الأن أمام أبيها الذى يضربها ؛ وإنما سيكون ذلك ليلا وهى منكمشة فى الظلام ،، تفكر فى « سعيد » الذى تحبه .

الإنسان يصنع حياته . يجب على الإنسان أن يريد حياته . إن إرادة الحب والحياة شجرة طبيعية ، قوية ، تنبت فى جسدك . والوجود هو . والناس هم الناس . إن الأفضل يوجد دائما فى مكان ما . فى الرمال ، أو فى الجرانيت ، أو فى الرصاص ، أو فى نفوسنا نحن . وهبة الدموع ، ومنة الدموع توجد دائما فى مكان ما .

ما أشد ما تشعر الآن بجسدها الهرم . ما أشد ما تشعر بروحها الهرمة ، غارقة تماما فى الماضي . إن كل شىء يتحرك بداخلها . ألف حياة تتعارض داخل حياتها الواحدة . إن الروح التى تتراجع والروح الغضب هى روحها ، وكذلك روح الرقة والوداعة .

كل شىء يهدأ ويخف بعد أن تبكى طويلا . وضغطت «أم حسن» براحتيها على عينيها ثم أبعدتهما كجناحين ناحية الصدغين ، وراحت تجفف وجهها . وقبل أن تنحنى على الطفل من جديد ، محت كل أثر للدموع . بل لقد أخفت تحت وشاحها خصلة بيضاء ؛ فقد يضطرب « حسن » لمرآها ، إنه لم ير جدته حاسرة الرأس طول حياته . كانت لا تزال جالسة ، فاقتربت من المخبأ .

ومرة أخرى رفعت القماش الذى يغطى الخلوة . لم يتغير شىء ومع ذلك فكل شىء مختلف .

إن العروق البيضاء ، والعرق إنما هي ملابس مستعارة . وهذا النفس المزعج ليس علامة النهاية ، وإنما هو علامة النضال الكبيرة ، ولا شىء يكتسب بدون نضال . إن هذا اللحم وهذه العظام ليست فى حقيقة الأمر « حسنًا » . إنما « حسن » يكمن وراء كل هذا ، يسهر

ويراقب . إن الطفل نفسـه لا يبدو أنه يومـن بجسـده . ورغم هذا الجسد فإنه سيعيش . إن أبناء البشر يحققـون مثل هذه المعجزات ولا تصنعها الدمى . ألم يسألها بالأمس قائلا : « أنحن راحلان ؟ . . . » إنه يعلم أننا نتجه نحو البحر . إنه يريد أن يرى البحر . وسيراه .

وهبت ريح شـديدة محت الشكـوك والقلق والذكريات الحـزينة . ولم تعد ترى أمـها الملتصقـة بالجدران ، وإنما أمهـا التى تضحك عند الغروب بينمـا الرجال يعودون مـن الحقول ووالدها الذى اشـترى منذ فترة وجـيزة فدانه الأول من الأرض . هناك قـمر المساء حيث أحـبها سعيد . وليس هناك فـقط جنى القطن ، الذى كانت تقوم به فى سن السـادسة ، مائـلة تحت الشمس المجنونة ، وإنما هنـاك أيضا الحـقول الخضراء النضرة التى يتمنى المرء أن يصعد إلى قمة شجرة ليغوص بعد ذلك فى بحـرها الأخضر . هـناك المديـنة بنبضهـا الذى يدق . هناك الغد ، « وهذا الطـفل الذى سأكون قـد صنعتـه من جديد » ، وهذا الطفل الذى سيصنع بدوره أشـياء . . . هناك هذا النهر ، هذه الأرض الطيبة ، وعذوبة الـصباح البديعة . هناك الضفاف والحـياة التى تتدفق من كل مكان ، وهؤلاء النـسوة اللائـى يهبطـن حامـلات جـرارهن وغسـيلهن . هـناك نهاية الكولـيرا ، نهاية الشـر ، الكوليرا مـقضى عليها ، مدفونة فى التراب ، ميته تماما فى جسد هذا الغلام .

الفصل الرابع

كان « أوكازيون » يدير ظهره للقارب ليمعن النظر فى الضفاف التى بدأت تتضح . إنها قريبة ، قريبة جدا ، ومع ذلك فهى خارج منطقة الخطر . فقال مزمجرا :

– هذه مركب الموت ، ولا أحد من هؤلاء الذين يروحون ويجيئون على الشاطىء مطمئنين تخطر بباله هذه الحقيقة .

خطر جسيم يتهددهم جميعًا ، الذين على ظهر المركب ، والذين على الشاطىء . ولو تراءى للمرأة أن تغسل ملابس الطفل الملوثة ، لتسبب النهر فى حالات وفاة أخرى . « قذارة . جهل . إن نساء الريف هؤلاء مشبعات بالمعتقدات البالية . » كان المروض يباهى بأنه من أهل المدن . فمنذ ثلاثة أجيال استقرت عائلته فى المدينة . وكان والده لا يزال يدير فيها متجرا . إلا أن « أوكازيون » كان لا يستطيع أن يتحمل البقاء فى المتجر . كان يعيش على هواه ، خارج الجدران . . . ولكن ها هو ذا ، الذى نذر حياته للهوائية ، ها هو ذا فوق هذه المركب ، داخل مساحة محدودة . مطوق بالخشب والماء ، سجين الغباء البشرى . إن هذه المرأة تلوث الطمى بالوباء . ضيقة الأفق كغيرها من الفلاحين ، هى وذووها لم يخرجوا على ظهر

الأرض . فمـا جدوى حـياتهم ؟ إن المروض يأخـذ على نفسـه بنوع خاص أنه لم يكن حـاذقا . لقد انـقاد للعاطفـة . ولكرم الأخلاق . وها هى ذى المكافأة ! « كنت أفاخر بأننى أعرف الحياة ، والناس . . . إننى لازالت أجهل الكثـير » . ألم تهدده بالأمس بـالقائه فى المـاء ؟ إن ذكرى هذا المشـهد يلقى الرعدة فى قلبـه . وبعد ذلك ظلت طوال الليل تسهر على الطفل أشبه ببهـيمة أثخنتها الجراح . ولو أنهم خلوا بينها وبين الموت ، لانقضت عليه فى وحشـية وبلا خشية ، وأعملت فيه أسنـانها وأظافرها . . . كان « أوكـازيون » يهز كتفيـه « بشعب كهذا الشـعب ، لن ننجو أبدا . . . وفى النهاية أنا لا أعـبأ بهـذا كله . إن الحيـاة حبل مشـدود . توازن مجنون ! فيجب أن نأخذها بالتمرجح قـدما على قـدم ولا نـكلف أنفـسنا مشقة النظـر إلى ما يجرى حولنا . وإلا فحذار من السقوط . إننا نهوى قبل أن تحين ساعتنا . . . » .

ومع ذلك فلم يستطيع أن يغـفر لنفسـه عدم الفطنة . وأنه فى ليلة واحدة هوى إلى أسفل سافلين .

أو لم يقض تلك الليلة مـنزويا فى قاع هذا المركب أشـبه بالحـمل الذى نتهـيأ لذبحه ! لقد شـعر بالخجل من جبنه والتـفت لكى يواجه نظرة المرأة .

أما هى فلم تعـد تعبأ به كـثيرا : كانـت متمددة فـوق البالات . ورأسها تحت الغطاء الذى يـحمى المخبأ . وكانت تتـحدث إلى الغلام بصوت خفيض . كان صوتها يبلغ الآذان منغما بعض الشيء . إلا أن

مـا كان يصل المروض من هذا الفـيض الرتيب المنغم من الألفـاظ لم يكن سوى بقايا جمل وألفاظ متفرقة .

مـاذا تحيك ثانيـة . ولمـاذا لا تتـرك هذا الغلام البـائس يموت فى هدوء ؟ وأفلتت منها كلمة . ثم كلمة أخرى . وسمع المروض كلمة: « شـاب » ثم سـمـع كلمـة « مظلة » ثم طارت كلمـات « يعـوى ، حبوب ، نجم ، دار ، جوع . . ! » حتى أقصى المركب .

كانت العجوز مائلة على الغلام تهمهم له قائلة :

- النهر هذا الصباح ، يا ولدى رفـيع بحيث إنك تستطيع أن ترى ما يجـرى على الضفاف . وكـأنك عليهـا . . . الشمس حامـية ، وأنت لا تلاحظ ذلك من خلف حجـابك ، ولكنك غدا ستنظر إليـها وجها لوجه . . . والأرض لم تبـد لى بمثل هــذه القوة والشباب ، ولا بمثل هــذا الإخضرار والنضارة . هناك طريق مرتفع قليلا يمتد بين الأشجار . وها هى ذى عربة نقل تمرق ، فى لون الفضة الذى تحبه . وبعد ذلك ، ها هو ذا صف من الجمال . انتظر حتى أعـدها . . . إنها خمسة . ولكن الخامس صغير وهزيل وهو يعرج فى سيره . ذات يوم ستصحبنى فى زيارة للأهرامات على ظهر جمل . .

واستطردت تقول :

- هل تعرف مـا أراه الآن ؟ . . . إنه رجل ضخم يجـلس فوق جحش يعـدو . والرجل سمين مثل « فكرى » الصبـاغ . وهو ينتعل خفين جديديـن برتقاليين طرفاهما مـتجهان إلى الخارج حـتى يتمكن الجـميع من رؤيتـهمـا وهو يمر ، إنه يمسك بيـده مظلة بيضـاء ببطانة خضراء تنقل ظلا جميـلا أينما ذهب ! ونحن سنشترى مظلة لنا . .

هناك أطفال على الطريق يلعبون بتلك الحشرات التى لا تعيش إلا يوما واحدا ؟ . . .

ليت فى جيبى فقط بذرة من نبـات ! بذرة واحدة ! لبذرتها هنا ، على طرف هذه الأرض السـوداء الخصبـة ، وبذلك عندما نعـود بعد عشر سنين نستطيع ، أنت وأنا أن نتعرف المكان الذى مررنا به . . . حسـن ، لقد كنت على حق عندمـا أردت أن تعمل فى إنشـاء المنازل عندما تكبر فـهذا هو ما ينقص قرانا . منازل كـالتى توجد فى المدينة ولكن بيـضاء ، بيضـاء تماما وبداخلهـا يأكل الجمـيع عندما يشـعرون بالجوع . . .

« الجوع » كلمة سمعهـا « أوكاريون » . « أنا أيضا أشعر بالجوع ! ونقب فى قـاع خـرجه فـلم يعثـر على شىء . ثم استدار ناحيـة « دسوقـى » الذى كان يقـود الدفة ورفع يده إلى فـمه عـدة مرات ، إشارة بأنه يريد أن يأكل . فانحنى النوبى وأخرج من تحت مقعده صرة ودس يده فى فتحتها وأخرج منها خبزا وبصلا . وقال له : خذ !

وتأكد « أوكاريون » أولا أن المرأة لم تقترب من هذا الطعام .

فأجابه الآخر قائلا :

- إن لديها مئونتها .

فـشطر المروض الرغـيف نصـفين ، ثم غرس أسـنانه فى النصف الأول وقضم لـقمة كـبيرة جعل يمـضغها فى بـطء ، وـهو ينقلها بين خديه . ولكنه ما أن تذكر الوباء ، والطـفل القريب منه ، حتى انسد حلقه ، ولم يعد يستطيع أن يبتلع شيئا . فنهض وبصق فى النهر .

وقال للقرد وهو يقدم له الباقى :

- خذ ! حاول أنت !

وحاكى « مونجـا » سيده ، وظنا منه أنها لعبة راح يمتـعض مقلصا ملامحـه . فنزع المروض من يديه آخر لقمة وتهيـأ ليلقى بها من فوق سطح المركب . وإذا بالشاب الـنوبى يقفز من مكانه ، ويلتـقط ذراعه ويستعيد الرغيف المقضوم دون أن يقول شيئا ، ويعيده إلى مكانه .

وحتى لا يخوض المركب فى الرمـال ، أمسك « أبو نواس » بعرق الخـشب الطويل وغـرسـه فى الطين . وجـعل يدفـع الضـفـاف من الناحيـتين . كان واقـفا فى المقـدمة فـجعل يروح ويجىء على حـافة المركب . كانت ساقاه سـمراوين مفتولتين . وكانت قدمـاه تثبتان فى صلابة وقوة فوق أقل مساحة من ظهر المركب .

ومر عدة مرات دون أن ينبس بكلمة أمام المكان الذى كانت أم حسن تقبع فـيه . وأخيراً عندمـا بدا أن الخطر قد زال ، توقف لحظات على مقربة من الخلوة وسأل قائلا :

- هل الغلام فى تحسن ؟

فردت العجوز قائلة :

- سيعيش . سيعيش ، أؤكد لك ذلك .

فرد الرجل :

- ما دمت تؤكدين ذلك فهو صحيح .

ومكث لحظـة طوـيلة أمام الـعـجوز ممسكا بالخـشـبة الطويلة بين ذراعيه ، صامتا منتبها . ثم ابتعد .

واستـقر على طرف المركب ، وجعل يحـدق فى الطريق المـائى . فـرأى جثة حـيوان منتفخة كـالقربة طافية على النهـر ، وظهر مركب

آخر ، فأصبحت أمـامه عقبتان محتملتـان يجب عليه أن يحسب لهما حسابهما بين هذه الضفاف المتقاربة إلى حد كبير .

* * *

كان « أوكازيون » ، وهو منكمش فى مكانه ومـولجا متكور على ركبتيـه ، قد رأى العجوزين يتحدثان . فـماذا كانا يقولان ؟ وها هو النوبى من جديد قد ابتعد عنها ، منصرفا تماما إلى مصير مركبه . إنه رجل بلا خيال . رجـل بلا مستقبل وبلا مـاض . كان من الممكن أن يولد فى أى زمان ، وفى أى مكان ، كل مـا كان سيلزمـه هو مركب ونهر لكى يضرب فى البحر دون أن يهتم بما يدور حوله . أما العجوز فهى مجنونة مسكينة ، ولكنهـا أيضا خطيرة . إن العناد فى هذا البلد يستيـقظ عند النساء مع تقدم السن . « مجنونة ، مجـرمة ، جاهلة » ولم يستطع مع ذلك إلا أن يعجب بما حققـته من نصر . من المحتمل أنها لم تنم منذ عدة أيام ، ومع ذلك فـهى لا تزال قادرة على اختراع الحكايات للطفل . وكأنه يسـتطيع أن يسمعـها ! . . . مستـحيل أن يكاشف أم حسن بأى شـيء ولا النوبى . إنهما شـخصان غـريبان . يعيشان فى عالم آخـــر ، فى عـالم خاص بهمـا ! فهـل ينجح مـع « دسوقى » ؟

واقترب من الشاب النوبى ، وراح يحدثه بصوت خفيض :

– « أنت تعلم أن هذه المرأة تـعرضنا لأشـد المخـاطر دمـارا . أنا بنفسى رأيت الغلام . . . إنه سيـموت . هذا مكتوب على وجهه . لا أمل فى عمل شـىء . قليلون هم من ينجون من هذا الغـلام أؤكد لك ، اعتبره قد مات فعلا » .

- هل تعتقد حقا أنه سيموت ؟ إن المرأة تؤكد أنه فى اليوم السادس . . .

- إن اليوم السادس لم يخلق لهذا البائس . أقسم لك . . .

أنت مثلا إذا أخذوك إلى سوق السمك ، وعرضوا عليك جوالا من السمك فإنك تستطيع أن تتعرف السمك الفاسد ، أليس كذلك ؟

- أنا لا أعرف شيئا فى السمك .

- مع كل هذه الأسابيع فوق الماء ، ألم تقم بالصيد أبدا ؟

- أبدا .

- كيف هذا ؟

- إن منا ، معشر النوبيين ، من يهتمون بالصيد ، ومن يقومون بعمليات النقل .

- ولكن الوقت طويل .

- الوقت هو الوقت .

- حقا ، إنك لست طلعة ، إنك تكتفى بالقليل .

- لكل شخص مهنته .

- أما أنا ، فلو كنت نوبيا ، لامتهنت الاثنتين .

- كلام .

- أؤكد لك .

- إلام ترمى بقصصك هذه عن السمك ؟

- قلت ذلك لكى أشرح لك أننى من فرط ما رأيت من الناس ، فإننى أعرف عندما يكون أحدهم مشرفا على الموت . إننى أتشمم ذلك ، واستشعره . ولم أخطىء أبدا . وعندما أكرر لك أن هذا

الغلام سيموت ، فهذه هى الحقيقة . . . هل تريد أن أقول لك إن هذا الغلام هو الموت بعينيه . انظر كيف يستسلم . إن العجوز هى التى تتحرك . هى التى تتدفق بالحياة ، ليس هو .

- ربما كان لديها من الحياة ما يكفى لشخصين وأنها ستعطيه الـ . . .

- أنا أفهم ما تقصد ، ولكن هذه الأشياء لا تنقل من شخص لشخص .

- ولو حدث العكس مرة ؟

- اسمع ، لا أمل فى شىء . فأمام المستحيل ، لا نملك عمل شىء . لماذا تصر على العناد أنت أيضا ؟ الشىء الوحيد المعقول . هو أن « نفرّ بجلدنا » . فبعد ساعات سيصبح رخيصا . لقد بقيت بالنسبة لنا فرصة واحدة ، فيجب أن ننتهزها .

فقال النوبى :

- أية فرصة ؟

- أنت الذى يقود الدفة . فادخل فى كومة من الرمال . وما أن نمس الأرض ، حتى نهرب معا . أنت شاب موهوب ، وسأدبر لك عملا تقتات منه فى المدينة .

فأشاح « دسوقى » بوجهه دون أن يجيب ..

- الهواء هنا فاسد ، أؤكد لك . وبعد ساعات سيكون قد فات الأوان بالنسبة لنا نحن أيضا . . . أنت شاب ولا تنس أنك لا تملك سوى حياة واحدة .

– وبعد ؟ . . . هل تتمسك إلى هذا القدر بحياتك ؟ فماذا يوجد فى الحياة ؟

– فى الحياة ، توجد الحياة .

– بالأمس ، كنت تشكو ، لقد سمعتك تقول . « الحياة مصيبة ! » .

– الأمس غير اليوم . . .

فهز النوبى كتفيه .

– والآن ، أجبنى ، ماذا نويت ؟

– لا تعتمد علّى فى هذا الموضوع . .

ثم استطرد بعد لحظة صمت :

– فيما مضى ، كانت لى أم . . . .

ولكنه ما إن لمح بادرة السخرية على وجه المروض حتى أشاح بوجهه من جديد .

* * *

فى الحقيقة ، لم تكن حال « حسن » فى تقدم . فكلمات العجوز لم تعد تبلغه ، وكان يتنفس بصعوبة . وكانت « صديقة » تخشى ألا يستطيع أن يتحمل هذا المجهود لفترة طويلة . فذهبت لتحضر غصنا من سعف النخيل الذى كان يغطى جرة المياه وعادت تهوى على الغلام .

كانت الساعات تمر بطيئة . وكان قلب « أم حسن » يقفز بين ضلوعها كأنما كانت تحاول أن تفر من هذا الزمن الجامد الذى لا يتحرك .

وأسفل مستوى النظر قليلا ، لمحت نسوة مجتمعات على حافة الشاطىء . كانت أصواتهن تصل حادة مشوبة فى بعض الأحيان بنبرات رقيقة صبيانية . كن جالسات تحيط بهن قدور من المعدن تتلألأ تحت الشمس . وقد أخذن يغسلن الملابس فوق حجارة مسطحة ، فى حين أن مجموعة أخرى تحملن الجرار مستندة إلى أردافهن ، ينزلن للحاق بهن . وفجأة رأت « صديقة » نفسها بينهن ، وكأن الزمن لم يعد له وجود . إنها فى ثوبها الزاهى ، هذه الفتاة الجالسة وسط الرفيقات اللائى يلبسن ثيابا سوداء .

- إذن ، صحيح أنك ستتزوجين يا « صديقة » ؟

وانتشرت الضحكات . وجذبتها إحدى النساء من طرف ضفيرتها. « وصديقة » تجلس القرفصاء ، ومرفقاها على ركبتيها ووجهها بين يديها ، إنها الوحيدة التى لا تضحك . إنها تحدق فى هذا المركب : نعم ، إنها هى التى تمر فى صحبة طفل .

وصاحت إحدى الفلاحات :

- إلى أين أنت ذاهبة أيتها العجوز ؟

فأجابت أم حسن :

- إنى ذاهبة إلى قريتى .

- ما اسم قريتك ؟

فقالت وهى لا تفتأ تهوى على الغلام :

- « بروات » .

فصاحت أخرى قائلة :

- الكوليرا منتشرة فى « بروات » .

فأردفت صاحبتها :

- لا ، الكوليرا انتهت .

* * *

الفتاة التى تلبس الأحمر ، إنها هى صديقة . إنها تتعرف الثوب ، إنها تتعرف بنفسها ، صامتة كما لو كانت تحمل مقدما عبء كل هذا الواقع . ومكثت جالسة بينما أسرعت الأخريات ناحية المياه حتى يتيسر سماعهن .

وسألتها إحدى النساء وقد وضعت يديها على فمها كالبوق :

- من أين أنت آتية ؟

- من القاهرة . . .

- هل مات كثيرون ؟ . .

- كلا . لم يمت كثيرون .

وإذا بإحداهن ، وكانت تجلس على انفراد ، تلتقط طفلا كان « يلبط » إلى جوارها ، وترفعه بأعلى ذراعيها تعرضه للأنظار .

- انظرى ، أيتها العجوز ، هذا الطفل أصيب بالكوليرا ، ولكنه شفى .

كان الطفل يتحرك . ويتفلت ، وقد نفد صبره ، يريد أن يعود إلى الرمال .

- لقد أعادوه إلىّ من المستشفى منذ عشرة أيام . إنه أجمل مما كان . . .

كانت الكلمات تدوى ، وصديقة تتأمل المشهد ، وأوكازيون يراقب هذا الطفل المستدير البطن الذى يقطر ماء .

وسـقط كُمّـا الأم فظهـرت ذراعـاها العاريتـان ، رطبـتين . . . حـمراوين من نفس حـمـرة جسـد الطفل . وابتـعد المركب وغـابت الصورة . ولم تعد الفتاة إلا نقطة حمراء .

وها هى صديقـة لا تفتأ تهوى على الغـلام ، إنه ينفخ بقوة تزداد شيئا فشيئا ، إن كوراً يوجد فى صدره .

وعلى مسافة أبعد ، ظهرت امرأة تحمل طفـلا على كتفها وغسيلها على ذراعهـا الأخرى . وحـولها خمـسة أطفال آخـرون يلاحقـونها ويزهقونهـا . لابد لها من مائة ذراع مـرة واحدة لكى تكفى كل هذه الزمـرة من الصبـيان . وعندما لمحت المركب والعجـوز الجالسـة ، لم تستطع أن تمنع نفسها من الصياح قائلة :

– فلتأت الشيخوخة حتى استطيع أن أتنزه مثلك .

وابتعـدت الضفاف ، وسرعان ما سـتخرج من المنظـر ، وستجد « أم حسن » نفسها أكثـر وحدة مما كانت فى الصباح . فكيف تقضى هذه الليلة الأخـيـرة ؟ ومـاذا تتأمـل فى هذا الليل الحـالك الذى يهم بالهبوط .

إن النوبى قد لا يتحدث بعد ذلك ، لقـد عاد إلى عصاه ولن يبقى سوى المروض .

وبحثت عنه المرأة بـعينيها . كان الـقرد فى هذه اللحظة منزويا بين ركبتيه . وراح يمشط له شعره بمشط من الحديد . إنها تحب أن تتحدث إليه ، ولكن كيف السبيل ؟

الفصل الخامس

لقد امتص الليل كل شىء . وها هو المركب وحده فى العالم . أمام جدار المدرسة الأحمر ، قال المعلم سليم :

– اليوم السادس هو بعث حقيقى .

ولم يكن يقول ذلك تطبيقا على حالته ، مادام قد مات . لقد كان يقول ذلك تطبيقا على حالة الغلام . . لقد مات المعلم الشاب . لماذا يموت الطيبون ؟ . . لماذا ؟ . . لا يجب أن أسرف فى التفكير فى هذه الأمور ، هذا المساء . لا يجب أن أفكر فى عدة أمور مرة واحدة . فيكفى أن أفكر فى الغلام . لا يجب أن أفكر إلا فى الغلام .

بعض العبارات المتبادلة قد تساعد على مرور الوقت .

وهبت ريح شديدة . وعالج النوبى ومساعده الشراع . وها هى أم حسن ترمق المروض مرة أخرى . إن نظراتهما تتقابل . فهو أيضا يتحرق إلى التحدث إليها . هل تناديه ؟ إنها تتردد ، ثم ، بحركة من ذراعها ، أشارت إليه بالاقتراب . فاحتار هو ، وتطلع حوله . كلا ، إنه هو المقصود . فقيّد قرده إلى السلسلة التى ثبتها أسفل المقعد .

وسأل بمجرد أن وقف :

- أنا ؟

فكررت الحركة . وبسبب الظلام الكثيف ، لم يميز وجهها إلا بالكاد . ولكن ما أن تذكر تهديدات الأمس ، وذلك القناع ، وتلك الأنفاس المحرقة لصق خديه ، حتى استولى عليه الرعب وعاد إلى الجلوس .

فقالت له : - اقترب ، لا تخش شيئا .

فنهض من جديد ، وتقدم بضع خطوات ، واستعاد طمأنينته شيئا فشيئا ، وراح يقترب منها فى بطء وهو يهتز فوق البالات .

فسألته صديقة عندما أصبح قريبا منها :

- ألا تستطيع النوم ؟

- كلا ، لا أستطيع أن أغمض عينى .

- ولا أنا أيضا .

- هذا واضح .

لم تعد على رأسه طاقية ، ولم يعد يلتحف بلفاعة ، وكانت الريح تلصق سترته الضيقة بصدره ، وردفيه . كان يبدو نحيلا ، بائسا . فراشة بلا جناحين .

فقالت المرأة :

- اجلس .

فجلس أوكازيون ، فى مواجهتها ، فى الناحية الأخرى من الخندق . وصمت . ماذا يقول ؟

وهنا سألها قائلا :

- كيف حال الغلام ؟

فقالت المرأة :

– هذه ليلته الأخيرة ؟

– ليلته الأخيرة ؟

– افهمنى ، ليلته الأخيرة من العذاب . إنه فى طريقه للشفاء .

– أتعتقدين ؟ هل سينجو ؟

– أكيد .

كانت لهجتها قاطعة . وفى الطرف الآخر من المركب ، كان مونجا يشد سلسلته .

فصاح به المروض وقد خففت عنه هذه التلهية .

– مونجا ، إذا تماديت ، فسألقيك للسمك .

وساد صمت آخر . فقاعات من الصمت . وفى هذه المرة ، استطردت المرأة قائلة :

– ما الذى حدث لقردك ، أمس ؟

– هذا المعتوه ، كاد أن يختنق . .

وإذا به يتساءل قائلا :

– إلى أى حد يمكن أن أذهب لإنقاذ مونجا ؟

ثم طرد هذه الفكرة السخيفة . ما الفائدة من حشو الرأس بالافتراضات ؟ لا شىء يمكن توقعه قبل حدوثه . ولا شىء يبقى على حاله . هل كان يمكن ، بالأمس ، أن يتصور أن يجلس على بعد خطوات من مصاب بالكوليرا ؟ إن الزمن ، والسأم ، والملابسات تستنفد الخوف ، وتجعل منك إنسانا آخر .

وتوقف الليل ، ثم تقدم فى دفعات مع كل جملة متبادلة . وتجنب

أوكازيون الحديث عن الطفل ، لكنه سأل المرأة عن « سعيد » وعن الصباغ ، وعن الضرير ، وعن أشخاص آخرين فى حيهم . وكانت أم حسن تجيبه ، وتتذكر ، وتحكى . لم تعد تخشى شيئا من جانب هذا الرجل ، بل إنه يوحى إليها بالاستئناس ! فتمادت معه لدرجة أنها أسرت إليه بأمر سفرها إلى « بروات » .

وسألته :

– هل تعرف البحر ؟

– لقد رأيت البحر مرة واحدة ، كنت قد اختفيت فى عربة قطار بين صناديق من البرتقال لكى أصل الإسكندرية .

– وعلى ظهر المركب ، كم يوما يلزم ؟ . .

– لا أدرى ، ليس كثيرا على ما أعتقد .

– عظيم . . لقد وعدت « حسن » منذ سنوات أن أريه البحر .

وحدث المروض نفسه قائلا :

– لا شك أننى غبى ، ولكن هذه المرأة هى الغباء بعينه . إن الطفل لن يصل أبدا حتى البحر . وقد لا يصله أيضا أحد من الموجودين على هذا المركب ، وذلك بسبب هذه العجوز .

وعندما وصل إلى هذه الفكرة ، استولى عليه الغضب من جديد . فنهض فى الحال وأدار ظهره للمرأة ، وانصرف يبرطم متذمرا ، ليعود إلى مكانه بجوار القرد .

* * *

وعند منتصف الليل تقريبا ، هبت ريح محملة بالرمال . وراح الهواء يلهب الماء ، ويرفعه فى تموجات .

كـان « دسوقى » ينام فى أقـصى المركب ، ورأسـه مدسـوس فى سترته المرفوعة . كـان النوبى يمسك الدفة ، وكـانت نظرته البعـيدة تفرض الصمت ، ولا تشجع عـلى أى تقدم . أما أوكازيون الذى لم يصرف نظره عن العجوز ، فقد لاحظ أنها ترتعش من التعب .

وإذا به يلتـقط شالـه الأزرق ، الذى سقط من على كـتـفيـه منذ البارحة ، والذى كان قـد تسلل إلى أسـفل المقعد ، وتوجه ناحيـة أم حسن التى لم تسمعه حتى وهو يتقدم نحوها .

وقال لها وهو يغطيها بالشال :

– احتفظى بهذا ، فأنت ترتعدين من البرد .

كانت لا تزال ترتعد .

– انزلى إلى المخبأ ، فأنت هنا معرضة للرياح .

– كلا ، لا أستطيع أن أتركه . يجب أن أسهر إلى جواره .

– ولكنه حتى لا يراك .

– إنه يشعر بى .

– أتعتقدين ؟

– إنه يعرف أننى أقرب إليه ما أمكن . إنه يعرف ذلك .

– عظيم ، إننى أفهمك . .

وانصرف المروض ، ثم نزل مرة أخرى إلى مقعده .

كانت المرأة متكورة تحت الشال الأحمر ، وكانت تبدو أكثر هرما ، وأبعث على الشفـقة عن ذى قبل . فلم يـطق أوكازيون أن يراها على هذه الحال . فحل قيد قرده ، وحمله تحت إبطه وصعد مرة أخرى إلى أم حسن .

وقال وهو يتمدد عند قدميها :

- لو أستطيع ، فسأسهر معك .

فطأطأت رأسها .

- جازاك الله خيرا .

كان المروض وهو يكافح النعاس ويفكر فى المرأة ، يسائل نفسه إذا كان كل هذا التصميم لا يقهر الموت .

الفصل السادس

وطوال الليل ، سـهـرت المرأة دون أن تحـاول أن تـرى الغــلام . وبزغ الفجر .

كانت مائلة على حافـة المركب تمـلأ إنـاء مـن التنك أعارهـا إياه « دسوقـى » . كانت فى عـزلتهـا هـذه ترطب ذراعيـها ، ورقـبتـها ووجهها . وتـبلل شعرها . المـاء طيب . وغسلت فمهـا ، فوجدت للمـاء نكهة الملح . « حياة » ، همهمت بها ثم كررت ، « حياة . . » إنها متأهبة ، إنها تتنفس ، إنها تنتظر .

وهذا « أوكاريون » يراقبهـا بطرف عينيه . وها هو يدمدم بنوع من الحنان : « عجوز مكلومة » .

وتعود أم حـسن إلى مكانها ، وتطوى الشال الكبيـر فى حرص ، وتضعه خلف رأس المروض الراقد الذى قال :

- أنا لم أنم .

ثم ، تذهب لتجلس فى هدوء ، فى مـواجهة الشرق وقـد عقدت يديها . إن كل شجرة تمر أمامها ، وكل حجر ، وكل حبة من الرمال فـوق الشاطـىء تغرق فى المـاضى ، وتذوب فى النسـيان إلى الأبد . لن تعود إلى تذكر هذا كله أبـدا ، ولن ترغب فى تذكره . فلا يجب

أن تجر معــها الأحلام المزعجــة ، ولا أن تغطى بالظلال خطوات غلام صغير .

والمروض يفرك عــينيه ، ويحك باطن قدمــيه ، وينتصب واقــفا . فهـل أحسن صنعا بخروجــه من النعاس ؟ إنه الملاذ الوحيد الذى بقى له ، والذى ادخــره له هذا اليوم . إن لســانه جاف ، ورأســه فارغ . وبمجرد أن وقف ، دفعه الفضول وعدم الصبر إلى أن يحوم مرة أخرى حول أم حسن . فسألها قائلا :

- وبعد ؟

كان وجه المرأة أملس ، صافيا ، سعيدا .

- ليلته كانت طيبة ، فلم أسمعه يتوجع .

- ربما كان هذا بسبب الرياح التى كانت تهب .

- ليست عندى آذان للرياح ، ليست عندى آذان إلا لحسن .

- عظيم ، أيتــهـا العجوز ، لقــد كنت أستــعلم فقط . . إذن ، أنت تقولين إنه لم يكن يتوجع ؟

- ولا مرة واحدة . . وقريبا سيشفى .

- قريبا ؟ . . قريبا متى ؟

- عندما تصبح الشمس فى ذروتها .

- ولـكننا فى الفجــر ، يا أم حسن . فإذا كــان مـــن المفــــروض أن يشفى الطفل ، لكان قد شفى الآن .

- يجب أن ننتظر حتى تصبح الشمس فى تمام كمالها .

« كيف يشــرح لها مــا لا تريد أن تفهــمه . ليـكن ، فلنتــرك لها

الفرصــة ، وسنرى كل شيء » . لم يكن أمام أوكــازيون إلا أن يلزم الصمت ، وأن ينتظر ، إلى جوارها . ومعها .

- عظيم ، فلننتظر .

فعادت « صديقة » تؤكد قائلة :

- يجب أن ننتظر .

ها هى الشــمس تنسل فى بطء من الأعــماق . والمروض لم يعــد يدرى ما الذى يتمنى أن يحدث ، أن يــستمر الزمن فى مكانه ، أو أن يمضى حاملا الناس بعيدا عن هذا اليوم ، عن هذا الأسبوع ، عن هذا العام . « من الأفــضل أن ننتهى » . ولاحظ على وجــه « أم حسن » تقدم الفــجر . وشيئا فــشيئا ، تلون الجلبــاب ، واليدان ، والذقن ، والوجنتــان ثم الجبين . الوجــه كله أصبح منيــرا ، يتوهج كالــنحاس القديم قرب النار . وعندئذ جعلت المرأة تصفق وتشرع فى الترنيم :

« أيتها الشمس التى تخرج وردية من الجبل الوردى » .

وقالت بصوت قوى :

- لقد شفى ، الآن .

ولقد زعــزع كل هذا التأكــيد من يقين أوكــازيون . « ربما كنت أنا أجهل الاثنــين » . وبعد ذلك توجهت صــديقة بالحــديث إلى النوبى وأعلنته قائلة :

- لقد شفى حسن .

ومن أقصى المركب ، راح « أبو نواس » الذى غيــر طاقيته وارتدى عمامة زرقاء ، يحنى رأسه عدة مرات إشارة بأنه سمع جيدا .

لم تبد على أم حــسن أية علامة تنم عن اللهفة ، ولــم تعد لديها

رغبة فى أن ترى ، ولا أن تلمس . ولكن المروض لم يبق واقفا فى مكانه ، وجعل يقول :

- هيا نرى ، هيا نرى . .

وتنهض العجوز ، وتقترب منه ، وتضع يدها على كتفه وتقول تأكيدا لصلحهما :

- اذهب أنت ، يا أوكاريون ، أنت الذى سيعلننى بالنبأ السار .

- أنا ؟

لم يكن المروض ينتظر هذا الشرف ، بل إنه لا يتمسك به . وألقى نظرة قلقة جهة النوبى ومساعده ، فهو يريد أن يجذب انتباههما ، وأن يطلب إليهما الاقتراب والذهاب معه لرؤية الغلام . ولكن لم يكن ينظر إليه هذا ولا ذاك . ويد أم حسن تضغط على كتفه مرغمة وحانية .

- نعم ، أنت . . اذهب ، يا بنى . .

وتردد مرة أخرى :

- ولكن ماذا يجب أن أصنع ؟

- هذا أمر يسير . . ترفع الناموسية التى وضعتها على وجهه ، وتنظر . . ذلك المساء ، رأيت الموت . وهذا الصباح سترى الحياة .

فقال المروض لكى يؤخر لحظة التنفيذ :

- وقردى ؟ ماذا أصنع بقردى ؟

- دعه لى .

وعندئذ يتوجه « أوكازيون » ناحية الخلوة ، ولكنه لدى كل خطوة ، يلتفت ، مضطربا ، آملا أن تستدعيه . فتقول له صديقة :

- لا ينبغي أن تخشى شيئا . إننى أتحمل مسئولية ذلك .

ثم أضافت ويدها مبسوطة فوق صدرها :

- لقد بُعث من جديد ، قلت لك .

- طيب . . . أنا ذاهب .

هل سيبدأ هو الآخر فى الاعتقاد ؟ وقرب المخبأ ، يخر على ركبتيه . ولكن الشك يعاوده فى الحال . . فيتلكأ ويحك بأظافره السوداء فى أطراف إحدى البالات ، وترشح منه قطرات ضخمة ، ويبحث بعينيه عن النوبى . فتقول له المرأة :

- انحن .

وينحنى . فإذا بحسن تحت الأغطية تماما . إن قطعة القماش تخفى جسده والمربع الرمادى يخفى وجهه . فيمد « أوكازيون » ذراعه ، ويخفضه فى بطء حتى قاع المخبأ . ويمسك بين سبابته وإبهامه بطرف المنديل ، ويتهيأ لرفعه . ومرة أخيرة ، يتردد ، ويسأل المرأة بعينيه .

فتقول بنفس اللهجة :

- انزع هذا الوشاح .

لم يبق أمامه إلا أن يطيع .

كل شيء ساكن . المناظر تتجمد فى مكانها . الزمن يتوقف عن سيره . الطيور تمسك أجنحتها . لم يعد يسمع حتى حفيف المياه .

وفى النهاية ، وفى حركة سريعة جافة - جاذبا ناحيته طرف الناموسية - يكشف المروض مرة واحدة عن وجه الغلام .

ويتقهقر « أوكازيون » مرتعدا حتى منتصف المركب والمربع الرمادى

يهفهف بين أطراف أصابعــه . ثم يسقط المنديل ، ويتأمل المروض يده في رعب .

وتود أم حسن أن تـقترب ، إلا أن سـاقيـها ترتخـيان . كل شيء يختلط في رأسهـا ، والـكلمات تتـداخل وتتشابك . ومــن فمهـا لا تخرج سوى نبرات غير واضحة .

وأخيرا نطقت قائلة :

- تكلم !

ليس « أوكازيون » بحاجة إلى الكلام . « أيتها المجنونة المسكينة » وفي قـفـزة واحدة ، انتـقل القـرد من بـين ذراعي المــرأة إلى ذراعي سيده . وهـاهما الاثنان ، معا ، يطلقـان ذلك النواح الذي يصاحب الموتى .

إن « أم حسن » تنفق دهرا كامــلا في اجتياز المسافة القـصيرة التي تفصلها عن الخلوة ، بينمـا الآخرون يرمقونها . سحب كـثيفة تتكون أمام عينيها ، رمادية ، سوداء ؛ وجســدها مسحوب إلى أعماق بئر . وترى اللون الرمـادي من جـديد . وفي طرف ممر لا ينتـهي ، تسـده خيوط العنكبـوت ، تلمح مشعلا تحاول أن تبلغه . وتبـسط ذراعيهـا إلى الأمام . ولكنها لن تبلغه أبدا .

ويترك النوتي الدفة بين يدي النوبي ، ويسرع ، ولكـنه يتأخر أكثر من اللازم ، فقـد انهارت العجـوز . وأحدثت السقطة صـوتا شديداً قطع فجأة أنين المروض . فيدفع مونجـا الذي يتعلق بسترته ، ويقترب من العجوز السـاقطة بطولها على ظهرها ، بينمـا « أبو نواس » يتجه بسرعة نحو الغلام .

ويركع المروض خلـف أم حـسن ، ويميـل إلى الأمـام ، ويسند رأسهـا ، ويرفعـها ، ويريحـها فـوق ساقـيه المنثنيـتين . ثم يداعب الصدغين الرطبين ، ويربت فى وداعه على الخدين المجعدين ، ولكنه يشعـر تماما أن المرأة ماتت بموت الطفل . ولم يبق هنـاك حـتى رجاء فى أن تعيـش ! لم يشعر المروض فـى حياته بمثل هـذا الألم . فذات يوم يسقط المرء من فوق حبله ، ويفقد توازنه ، فيعثر على نفسه وسط الآخرين ، وسط آلام الآخـرين ، ولا يعـود إلى اللعب بعد ذلك . لا يمكن للمرء أن يعود إلى اللعب بعد ذلك .

« قلبى يدمى ، هذه أول مـرة » وها هو « أبو نواس » ، بعـينيـه الرماديتين اللتين اعـتادتا أن تخترقا المسـافات ، ها هو يحاول أن يرى فى قاع الخلوة ، هـذا الطفل الذى لا يعـرفه . ويدس ذراعه فى حلكة الظلام ويمـدها حـتى تلـمس الجسـد . فـإذا بالصـدغين سـاكنين . فيتحسس الذراعين ، فإذا الرسغان لا ينبضان . وينتظر عند الصدر ، ويمس البطن ، ويضغط عـلى الفخـذين ، والركبـتين . فإذا كل شىء يابـس ، بارد ، برودة الـكهوف . هذا الشكل ، هذا الحجر الجامد ، أتراه كان طفلا ؟

وصاح النوتى فجأة ، وقد حدس أن المرأة لم يعد أمامها من الحياة سوى لحظات :

- أم حسن ! أنت التى على حق ، فـالطفل حى ! هذا الشكل ، هذا الحجر ، هذه الصخرة الجـامدة ، من المؤكد أنها شىء آخر إلا أن تكون طفلا . ويرتفع صوت النوبى !

- الطفل حى !

وإذا بدسوقى الذى يمسك الدفة يردد كالصدى :

- أم حسن ، الطفل حى !

ويلتفت المروض ، حائرا ، ناحية هذا وناحية ذاك ، محاولا أن يفهم . لقد قالت له المرأة : « أوكازيون ، أنت الذى سيعلننى بالنبأ السار » .

ويستطرد النوبى قائلا :

- خداه دافئان . حسن أمسك بأصبعى فى يده الصغيرة . . ويضغط عليها ! لو كنت تعلمين كم هو يضغط شديدا ، يا أم حسن.

لم يشعر أبو نواس فى حياته بمثل هذه القوة بوجود الطفل . إنه يكرر لنفسه قائلا : « إنه حى . إن الغد يفيض حياة » .

ثم يصيح النوبى وقد أنار وجهه :

- القوة عادت إليه ، إنه يضغط فى يده الصغيرة على أصبع النوبى .

ويهز المروض رأسه فى حزن وهو يداعب جبين المرأة . إنها الآن بعيدة جدا ، فلم تعد تسمع هذه النداءات . لقد قالت له : « أوكازيون ، أنت الذى سيعلننى بالخبر السار » .

ويستطرد قائلا :

- كل شىء مستمر ، لقد قلت لحسن إننا سنذهب حتى البحر ، ولقد فهم !

أما الشاب النوبى الذى لم ير وجه الطفل قط ، والذى يجهل طوله عندما كان يقف ، فقد أخذ ينظر إليه فجأة . إنه لم يكن أبدا يتدفق حياة كالآن ! ويكرر الشاب النوبى قائلا :

- لقد فهم حسن أننا ذاهبون إلى البحر !

ويميل « أوكازيون » ، وفى هوادة يدير وجه « صـديقة » على أحد جانبيه ، ويلصق شفتيه بأذنها ويستأنف بعد الآخرين قائلا :

- أنت التى على حق ، يا أم حسن ، فطفلك حى . . كان يقف برهة بعد كل جملة حتى تجد الكلمات الوقت الكافى للتسرب :

- إن خديه دافئان . وهو يمسك فى يده الصـغيرة بأصبع النوبى ؛ ويضغط عليها . . . كل شىء يستمر ، يا أم حسن . . إننا ذاهبون إلى البحر .

وعلى الشاطىء ، طفل وحيد ، عارى الجسد يغترف الماء بين يديه ليصبه فى فتحة محفورة فى الرمال .

وهاك عصفور أبيض البطن ، صلب الجناحين ، يحف بالصارى . ثم يغيب فى سرعة مذهلة .

ويُعوِل النوبى قائلا :

- لقَد منحته آخر أنفاسك ، يا أم حسن ، فهو حى !

ثم يعلن دسوقى قائلا :

- لقد منحته آخر أنفاسك يا أم حسن ، فهو حى !

ويدمدم « أوكازيون » قائلا وشفتاه تحف بوجه العجوز :

- لقد أنقذت حياته بآخر أنفاسك .

ويلح « أبو نوَاس » ويده أمام فمه كالبوق :

- الطفل سيرى البحر . قسما بالله ، سيدخل البحر !

لم يفهم النـوبى فى حيـاته مثلمـا يفهم الآن ، ولـم يحب البـحر كما يحبه الآن .

ويستطرد دسوقى :

- الطفل سيرى البحر !

ويستأنف أوكازيون :

- هل تسمعيننى ، يا أم حسن ، إننى أعلن لك النبأ السار : الطفل سيرى البحر !

وإذا بابتسامة ترتسم على ثغرها ، إنها تسمع أصواتهم . وتسيل أنهار هائلة ، وتستسلم أم حسن للتيار يحملها فى وداعة .

إن الغلام موجود فى كل مكان ، إنه كائن ، بالقرب منها ، وأمامها ، وفى صوت هؤلاء الرجال وفى قلوبهم . إنه لم يمت ، ولا يمكن أن يموت . ويلوح للسامع أن الأصوات تغنى . وبين الأرض والغد ، وبين الأرض وبين هناك لا ينقطع الغناء .

وتتنهد قائلة :

- الحياة ، البحر . . وأخيرا البحر . .

« النهاية »

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيميلوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	والتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لوريثزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميونوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : فاروجان كازانجيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بريارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وايبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم الترجمة واللغة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	جان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ - الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ - عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ - تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ - العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ - الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ - التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	الان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ - تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ - حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٧٤٤ / ٢٠٠٢



اليوم السادس

«مصر الحبيبة» - كما تسميها أندريه شديد - ماثلة فى قلبها كما هى ماثلة فى جميع كتاباتها من شعر ومسرح ورواية.
ورواية (اليوم السادس) لا تخرج عن هذا الحكم العام؛ فأسماء الشخصيات والأماكن من ريف مصر، ضحية ثلاثى الفقر والمرض والجوع؛ مما مهد لانتشار وباء الكوليرا فى عام ١٩٤٧.

وهى رواية رمزية، فالكوليرا فيها تمثل القضاء والقدر فى أبشع صورهما، والطفل المريض «حسن» يمثل الإنسان بكل ما فيه من ضعف، أما جدته «أم حسن» فهى تجسيد للحب، والإيمان فى الحياة والأمل فى المستقبل.
إن «أندريه شديد»، التى سبق أن عرفناها شاعرة عظيمة، تعزف لنا فى هذه الصفحات لحنًا مؤثرًا يعتبر تشريفًا للأدب الفرنسى من كاتبة عربية الأصل.